

جَمَاعَةُ نَسْرَتِ السَّافَةِ

بِالْإِسْكَدَرِيَّةِ

حَيَاةٌ وَحَيَاةٌ

دُكْتُورُ
مَحْمُودِ كَامِلِ الصَّيْبِي

(دُكْتُورَاهُ فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ)

مَقْرُوءُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

الرهاء



الى فتيات مصر وشبانها ...
الى ذكرى ماضى مصر المجيد ...
وحاضرنا الغامض ...
واملنا فى المستقبل .

محمد لامل العصبى
وكيل إدارة أبحاث المصايد
بأسكندرية

القرية

في شمال الوجه البحرى وعلى بعد كيلو مترين من شربين أحد مراكز مديرية الغربية تقع قرية دنجواى على الشاطئ الأيسر لترعة الساحل التى تشق مجراها فى هذه البقعة تقريبا محاذية فرع دمياط وتبعد عنه ما يقرب من خمسة مائة متر

أعترف بعجزى عن معرفة تاريخ هذه القرية القديم وعن معرفة مؤسسها ومن بدأها وأكتفى بوصفها كما هى الآن فإنها عندى تصلح مثلاً للحياة الريفية فى مصر .

أول ما يلفت نظر القادم إليها بطريق النيل (من جهة الجنوب تقريباً) أو بأحد الطرق المؤدية إليها من الشرق أو الغرب قصر شامخ البناء مترامى الأطراف ذو ألوان زاهية تعكس ضوء الشمس المشرقة ؛ يبرهن على قوة من بناه وشيده فإذا ما اقترب منه الرأى لاحظ أن هذا البناء الفخم يقوم بمفرده على الضفة اليمنى للترعة ويصله بالقرية ممر خشبى صغير .

أقيم حول القصر سور من البناء له مدخل عام من الجهة الشرقية يتكون من أبواب خشبية ضخمة محلاة بابتكارات

الصانع المصرى . بعضهم - حديث والبعض الآخر من الفن العربى الذى يشاهد على أبواب أبنيتنا القديمة وخاصة المساجد ودور العبادة .

هذا المدخل يحجز خلفه بهوا صغيرا على احد جانبيه باب لحجرة واسعة وكلاهما يحوى بعض الاثاث وكثيراً من المقاعد . وهذا الجزء من القصر يستعمله القرويون والعمال الذين فى خدمة صاحب الدار ، ومن لا حيثة لهم عند احتياجهم لمقابلة سيد المنزل وعمدة القرية لعمال من الاعمال .

إذا سنحت الفرصة لزائر هذا البناء أن يجتاز تلك الردهة الصغيرة إلى البناء الداخلى فأول ما يراه حديقة واسعة مترامية الأطراف بها قليل من الشجر والشجيرات هيئتها تدل على الإهمال وعدم الاعتناء . لافن فيها ولا حب للطبيعة فإن فى مثل هذه الحديقة الرحبة مجالاً لمن يحب الطبيعة ويعشقها فيمكنه ؛ دون أن ييذل فى ذلك جهداً كبيراً - أن يغرس فيها كثيراً من النباتات والأزهار الباسمة ذات الألوان الفاتنة والرائحة الذكية المنعشة .

ولكن شاءت الظروف أن يكون مثل هذا الإهمال هو إحدى ظواهر الحياة فى مصر ؛ وقليل من أهلها من يحب الطبيعة . ويقدر جمال سمائها الصافية ، وشمسها المشرقة ، وقرها

المضى، وأزهارها الزاهية، وطيورها الفاتنة المكسوة بمختلف
الريش والتي تنشد أناشيد الطبيعة بنغيات عذبة موسيقية
وذكاء حيوانها مع الإخلاص في خدمة الإنسان الذي
يؤدي قليلا من الواجب عليه نحوه من الشفقة والرفق.
والذي لا يرى فيه أى جمال أو ذكاء أو إخلاص، وإنما يعتبر
مسخرأ لخدمته وتحت سيطرته فإن كان فى حاجة إليه
استخدمه بغير شفقة أو رحمة، وإلا أهلكه بمنتهى القسوة
وبغير اكتراث.

على الجانب الأيمن لتلك الحديقة يطل على التربة بناء
من طبقتين (سلامك) متوسط الحجم جميل المنظر
جدرانها محلاة بنقوش حديثة، كان يستعمل فيها مضى لاستقبال
الزائرين ذوى الأهمية عند رب الدار. ولكن بعد موته
امتدت إليه يد الدهر فأهمل من الأسرة حتى سقطت أسقفه
ولم يبق منه سوى تلك الجدران الشاحخة التى تنطق بعظمة من
بناه. وبعد أن كانت تضم بينها رجالا ذوى حيثة ومكانة
أصبحت تظل طورا لا مأوى لها.

خلف الحديقة يقع البناء الأساسى أو القصر يصعد إليه
الزائر على سلم رحب الدرجات مصنوع من أجود الرخام.
هذا السلم ينتهى بردهة متوسطة الاتساع فى كل ركن من

أركانها الأربعة عمود من الرخام الإيطاليّ النفيس
وفيه بابان يوصلان إلى بهو كبير يحمل الهواء الذي يملؤه
هيبة ووقاراً وفي وسطه صف من أعمدة المرمر الإيطالي
الثمين : جدرانه محلاة بنقوش فنية ، ونحوت ثمينة ، وعلى سقفه
قضى النقاشون والمصورون كثيراً من وقتهم ، كل يجتهد
في اظهار فنه وسعة مخيلته وحنقه ومهارته .

على هذا النحو من العناية وأظهار الحديث من جمال فن
العمارة ، وما وصل إليه من تقدم - أقيم هذا البناء ويتكون من
ثلاث طبقات وفي كل حجرة من حجراته آية من آيات الفن
إما ابتكرتها عبقرية من قاموا بزخرفة هذا القصر المشيد
أو نقلوها عن غيرهم . وقد فرش بأحدث الأثاث وأجوده
وأغلاؤه ثمنا من السجاد العجمي النفيس إلى كثير من المرايا
والزجاج المصقول والمقاعد الوثيرة . ثم إلى طقوم الذهب
والفضة التي تزين حجرات الأكل وغيرها .

وعلى الجملة فانه يبدو أمام الناظر جنة الدنيا وبهجة
النفوس . ويقوم دليلاً ساطعاً على قوة وجبروت وثروة طائلة
وعلى ما ينعم به أصحابه من عز ومكانة . حتى ليخيل إليه أن الدنيا
قد خلقت لينعم بها هؤلاء . وحتى يتعذر عليه أن يدرك
كيف وعلى أي شكل يشكر ساكنوه هذه الجنان ألماً أو تمتد

إليهم يد المنيعة فيدفنون تحت الثرى وينتمون إلى مصير ذلك
العامل القروى الفقير ، . أما الذى يقدر الفن والجمال فربما
يعتبر أن ساكنى هذه المؤسسة العظيمة قد سلبوه بعض
جماله فكسوه بالآثاث من غير تنظيم أو تنسيق . لا قدرة
لهم على اختيار الموافق من الألوان التى تلائم الذوق السليم .
وكيف يُعتبر هذا القصر جميلا دون أن يحوى آلة
للموسيقى التى هى غذاء النفس وسر جماله . . . ؟ عندما يترك
القادم هذه السراى إلى القرية يشعر بالفرق العظيم وكأنه
قد هوى من السماء إلى الأرض فى الثوانى التى عبر فيها ذلك
الممر الخشبي الصغير .

تمتد القرية نحو كيلو متر على شاطئ الترع وتكون
(واجبتها) من مباني مختلفة لاتناسق فيها ولاجمال تتراوح بين
أكواخ مبنية من اللبن أو الطين لا يزيد ارتفاعها عن مترين
ونصف متر بجانب منازل متوسطة الحجم من الطوب
الأحمر لم تفد شيئا من جمال فن العمارة أو تقدم الأيام بل
لاتزال تحتفظ بفكرة المنزل التى فكر فيها الإنسان الأول
وهي عبارة عن حوائط قائمة ؛ الغرض منها الوقاية والحفظ
وليس هناك منزلان فى ارتفاع واحد أو تنسيق واحد .

إذا ولى الزائر وجهه شطر داخل القرية ولم يكن عارف

شيئا عن الحياة الريفية في مصر فربما يذهل لما يراه . داخل
القرية (كواجهتها) من حيث المباني فهناك منازل في ارتفاع عشرة
الأمطار تغطي مسافة لا بأس بها . وبجانبيها أكواخ من الطين
وضيقة ضيقة لا تصلح أن تكون سكنا للإنسان . وجميعها
مغطاة بالقاذورات لم تمسها الحضارة ولم يعرف أهلها أن
النظافة من الإيمان ، . وعلى السقوف أكداس من حطب
الوقود تزيد من خطر النيران في مثل تلك القرية المترامية
المساكن العديمة الشوارع . أما حواري القرية فليست في
مستوى واحد بل هي تجري بين مرتفعات ومنخفضات ،
وبين ضيق واتساع ، ملأى بالأتربة والقاذورات وهنا
وهناك تشاهد أكداس السماد وفضلات الماشية التي هي
مأوى لكثير من الميكروبات ومصدر لكثير من الأوبئة .
ومما يلفت النظر كثرة المساجد في القرية ، والنظام السائد
فيها على عكس قواعد الصحة . فهي مصدر لانتشار الأمراض
المعدية الفتاكة ، وخطر على صحة الأهلين . فتجد الجميع
يغتسلون في حوض صغير مملوء بالماء . والبراز أما أن يخزن
في خزان معرض للجو بجانب المسجد ، أو يجري في مجرى
ضيق ليصب في النرعة التي يستعمل ماءها القرويون في
مشربهم ، ومأكلمهم ، واستحمامهم ، وجميع مرافقهم وحاجتهم

المنزلية دون تنقية أو تطهير.

أما القرويون فينقسمون الى طبقتين : طبقة الملاك وهؤلاء يعدون على الأصابع ويشاركون السراة وهـ الخواجات ، (الاجانب من الفرنجة) فى امتلاك الأرض ويعيشون عيشة محدودة متوسطة بما لديهم من مال وثروة لا بأس بها ولو أن معظمهم يجعل معنى الحياة . إلا أن الثروة فى هذه الدنيا تخبأ كل جهل وتخفى كل عيب .

أما الطبقة الأخرى فهم الفعلة والعمال وفريسة الجهل ، ومحط الاحتقار ، والأزدراء من سادتهم الملاك يعاملون بالشدة والقسوة . هؤلاء قد خلقوا لا ليعيشوا العيشة الحقة ولا ليعرفوا أنهم مصدر القوة ، وبجهودهم تتكون ثروة الأمة ، وبعرق جبينهم تبنى : مما يجعل لهم الحق فى أن ينالوا بقدر ما يعطون من جهد وكد فى فلاحه الأرض وزرعها . بل تركوا فى ظلمات الجهالة محافظة للقديم على قدمه واحتراما لذلك الفرق الشاسع بين السيد والخادم . المالك الصغير يستوى فى ذلك مع العامل فليس لهم من حول أو قوة سوى طاعة أولى الأمر منهم . ولكى يكون وصف القرية كاملا أرى لزاما على أن أصف حياة أسرة من هذه الطبقة .

بجانب منزل كبير تبلغ مساحته ما يقرب من ثلاثة أرباع
الفدان تسكنه إحدى أسر الملاك يلتصق في زاويته الشرقية
كوخ صغير مبني من الطين لا يغطي أكثر من خمسة وعشرين
متراً مربعاً ولا يزيد ارتفاعه عن مترين . يتكون من
سرداب ضيق سقفه السواء ينتهى بشبه غرفتين لا فرق بينهما
وبين جحور الحيوان الذى يعيش فى الخلاء . لاناقة لها .
أحدهما مسقوفة « بالبردى » والاخرى بالغاب وبالجملة
مثل هذا المأوى يذكر بالخطوة الأولى التى خطاها
الإنسان الأول فى وجوب الوقاية من تقلبات الجو
ومطاردة الحيوان المفترس فلجأ إلى الكهف ثم إلى الكوخ .
فى هذا المكان كما أعرفه يسكن الزوج ووالدته وإحدى
نسائه وأطفالها الأربعة « والماشية » أما الزوجة الثانية فتعيش
مع والدتها فى مكان آخر . الوالدة عجوز شطاء قد سلبتها
الأيام كل قوة ونشاط والأطفال أكبرهم سناً يبلغ ثمانى
سنوات . وأصغرهم عدة أشهر . وعلى هذا فانهم يحتاجون كل
وقت إلى أمهم للرعاهم ولترضع صغيرهم وتسهر على تربيتهم .
أما الزوج فهو كل ما تملكه تلك الأسرة من مساءد
ومعين وكفيل وهو يعرف ذلك حق المعرفة لا من قانون
تعلبه أو إنسان أوحى به إليه وإنما هو قانون الطبيعة الذى

لا يكسر فهو يسرى فى دماء الكائنات الحية سواء أكان الكائن إنساناً أو حيواناً وهو المحافظة على دمه والذود عن حياضة ووجوده ووقاية أهله وبنيه . وربما ورت ذلك عن الإنسان الأول الذى تعلم الصبر والجلد وحب التضحية ومقابلة الاخطار فى تلك الأيام كان الرعاة يشيدون من الأحجار أكواماً أو أسواراً ليحفظوا فيها نساءهم وأولادهم وما لديهم من ماشية .

هذا الزوج يشتغل تقريبا كل يوم من أيام السنة سواء أحب ذلك أو لم يحب وسواء شعر بالقوة اللازمة لتأدية عمله أو لم يشعر ويباغ متوسط أجره عشرين قرشا فى الأسبوع . بهذا الأجر يعيش هو وأسرته .
فعلى أى نوع تتصور أن تكون هذه المعيشة ؟ ؟

الحياة الأولى

منازل الملاك فى تلك القرية كما هى الحال فى جميع القرى المصرية . وتتكون الأسرة فى العادة من شيخها الهرم أو ابنها البكر يدبر أمورها ويتصرف فى أموالها ويدبر دفتها . إما إلى بر السلامة أو الهلاك ومشل معظمها كمثل

« السركى » الذى لا ترتيب فيه ولا نظام .

أما باقى أفراد الأسرة فليس لهم فى الغالب حول ولا قوة ولا مناص لهم من طاعة أمر رب الدار والعمل بما يراه شط أو اعتدل . قد قتلت فى نفوس شبابها ورجالها فضيلة التفكير والاعتماد على النفس وحب التجربة والمخاطرة حتى إذا ما قضت الأيام على أحدهم أن يفكر لنفسه وجد عبء الحياة ثقيلا وفى كثير من الأحيان يكون نصيبه الخيبة والفشل .

فى أحد تلك المنازل وُلدت وقضيت أيام طفولتى وجزءاً من شبابى

أما أيام الطفولة فهى صحيفة سوداء ليست فى حياتى فقط ولكن فى حياتنا الاجتماعية المصرية . وكيف يُنظر من أم جاهلة مهما كان لديها من حول أو ثروة أن تستكشف من تلقاء نفسها ما فى هذه الحياة من سعادة وجمال لتقوم بغرسه فى نفوس أبنائها . يعيش الطفل غالبا بين أكداً من القاذورات عقلياً وجثمانياً . حياته سلسلة من الأيام المتشابهة المملة . فى المنزل تعودت عيناه عدم النظافة والترتيب ورؤية القسوة والشدة . وأذناه الصياح والعويل وكثيراً من ألفاظ السباب والشتم (وما أكثرها

في لغتنا العريضة !!) لا يعنى بنظافة جسمه كما يجب
وفي خارج المنزل ليس أمامه سوى أن يختلط بمثله
من أطفال القرية فيشاركونهم في اللعب بالطين وذر الرماد
بعضهم في أعين البعض والجلوس لسماع الخرافات . وفي
كثير من الأحيان المشاجرة حتى يسيل دمه
وتقطع ثيابه .

في « الكتاب » أو المدرسة الأولية تعود الخوف
والجبن فهو يرى معلمه كما يرى السجين جلاده لما يلقاه على
يديه من قسوة وشدة وأن هو ذل أو أخطأ أو هَمَس كان
نصيبه العصى والتعرض لكثير من أصناف العذاب والعقاب .
وليس غريباً أن يكون بغض الأطفال وكرهم التعليم
ونفورهم منه ظاهرة عامة حتى أن بعضهم ليرى أن أكبر
عقاب يناله من والديه أو القائمين بأمره هو إرساله إلى أمثال
تلك « الكتاتيب » و « المدارس »

أما ما يحصل عليه من العلم فهو قليل من الحفظ عن
« ظهر قلب » مما تيسر له من القرآن الكريم وبعض القطع
الشعرية والنثرية دون أن يفهم لها معنى ومثله في ذلك مثل
البيغاء نهرف بما لا تعرف ، أو مثل الآلة الحاككة . هذا عدا ما تعود
من الكذب والخداع والذي اضطره لذلك هو أنه إن

قال الصدق في فعلة فعلها أو ذنب أتاها نال العقاب صارماً
وإن كذب ولم يُقر فربما نجا من الجزاء .

قضيت خمس سنوات طوال « في كُتَّاب » القرية
واحتملتها بما فيها من قسوة ومرارة وليس في ذاكرتي منها
سوى آلام التعذيب والضغط والخوف من العصي وسائر
أنواع ما لحقني وغيرى من العذاب وفي رأبي أن كل يوم
من أيامها كان قرناً فإن تلك النفس الصغيرة التي تحب
بطبيعتها الخلاء واللعب واللهو البري، كانت يتحتم عليها أن
تجلس من خمس ساعات إلى سبع طوال دون حركة
أو همسة في غرفة مزدحمة بأمثالي من الأطفال .

بعد ذلك اندمجت في سلك إحدى المدارس الابتدائية
التابعة للجمعية الخيرية الإسلامية فوجدت أن الفرق بين
الحياة فيها وبين كُتَّاب القرية شاسع . فبناء المدرسة جميل
يطل على النيل روعى فيه الكثير من قواعد الصحة من حيث
غرف التدريس ذات المقاعد المريحة ووسائل التهوية وكمية
الضوء . وبالجملة خطوات خطوة واسعة في سبيل النظافة التي
ألزمتني أن أتطور في ملبسى واعنى به ليلائم هذا الانتقال
ولا أنجو من العقاب الذي ينالني أن أنا خالفت .

أما طريقة التعليم في تلك المدارس وأمثالها من مدارسنا

الابتدائية فهي في روحها طريقة الكتاب والعريف (سيدنا)
فإنها مازالت جافة تعتمد على قسوة العقاب وشدة
ووجوب طاعة الأوامر مهما كان فيها من غضاظة ومرارة
وشطط وحفظ « المنهج » عن ظهر قلب سواء أفهمت
ما تحفظه أو لم تفهمه ، وعمـل الواجب المنزلى سواء أ أمكنك
ذلك أو نقلته عن غيرك من أقرانك التلاميذ ، وإن أنت
وفقت في إجابة أسئلة الامتحان سواء أ كنت كفوئاً أو غير
كفء ، ظهر اسمك في قائمة الناجحين ، وعدك الأهل
والأقارب والأصدقاء بطلا من الأبطال الفائزين ، وإن
لم يظهر اسمك نظر إليك بعين الاحتقار وعدك الأهل غيباً
مهملاً ، وتحتم عليك إعادة عامك الدراسي بما فيه من ملل وسآمة .
قضيت في هذه المدرسة أربع سنوات أخرى من حياتي
لا أذكرها إلا بالخوف والملل من ساعات أيامها الطويلة
المملوءة بالحفظ و « التسميع » والامتحان تلو الامتحان
ومنظر العصي تتكسر على وعلى أقراني وسماع ألفاظ السب
واللعنة التي تنهال علينا والتهديد بما هو أسوأ من ذلك من
الرسوب في آخر العام ، إلى الفصل من المدرسة وخلافه .
في آخر أعوامي الأربعة أقر أن هذا النظام قد أكسبني
مقداراً لا بأس به من اللغتين العربية والانجليزية ومن الترجمة

والحساب والخط والرسم المنظور . إلا أن هناك جزءاً كبيراً هو في الحقيقة سر الحياة وعمادها لم أتلق منه شيئاً . . . لم أهملت تلك المدارس ونحن في القرن العشرين ما استكشف قبل التاريخ وبعده وما أقره فلاسفة الأغريق وباحثو مختلف العصور الذين عقبوهم وجروا على سنتهم وهو وجوب حصر أغراض التعليم وأسبابه ومختلف وسائله حتى تنتج غرضين مهمين . . . ؟ ؟

الغرض المادى . ولتحقيق هذا يجب أن يكون هناك عقل سليم فى جسم سليم ليتمكن الطالب من كسب رزقه وحماية نفسه وتحقيق مآلديه من آمال فى وسط مجتمع مملوء بالشروع والاطماع .

والغرض الثانى هو أن يستمد النشء من التعليم غذاء لروحه فيملأها بالقضائل حتى يمكنها أن تغلب على طمع النفس وقهر ما حولها من مظاهر خداعة مغرية .

فأين تربية الجسم السليم فى مثل تلك المدارس . . . ؟ ؟
أهى ساعة « الجباز » فى كل أسبوع تلك التى يبغضها معظم التلاميذ لما يقترن بها من قسوة العصى والفاظ السباب البذيئة التى تكالمن يزل فى حركة من الحركات كأنها حراب تصوب إلى صدره يضيق بها ذرعاً ويزداد نفوراً

من الرياضة البدنية . . . ؟ ؟

أم هي مراقبة الضابط لبث الهدوء والسكينة في أثناء
الفسح القصصيرة بين ساعات الدروس . . ؟ ؟ أم هي وقت
الليل المكس بالواجب المنزلى الذى ربما يلزم هذا النشء
الصغير أن ينفق في أدائه الساعات الطوال وبهذا يفقد جزءاً
من وقت نومه الذى قرره له أطباء الصحة وعلماء التربية . . ؟ ؟
وأين هو غذاء الروح الذى يلقنه التلاميذ ؟

يشب النشء ؛ تحت هذا الضغط - على الخوف كما ذكرت .
ويجرب فى دمه داء الكذب والخداع . وعندى إن الكذب
هو أسوأ ما تصف به النفس ، فلا يزال فريسة لأحداث
الجهل والخرافات والخوف من كل شيء (حتى أن البعض
لينخيل إليهم أن ظلالهم إنما هي عفاريت تتبعهم)
والتقاليد الزرية التى علقت بالدين وليست منه ، ولا يعرف
معنى للحب والجمال أو الشفقة والرحمة .

ليس يُلام مثلى ومن فى سنى ممن يعيشون فى بيئة
كالتى وصفت ، إذا لم يُقدروا جمال الطبيعة فى أزهارها
الساطعة الألوان ، ومياها المتلألئة الفضية ، وسماها الصافية ،
وطيورها الغردة ، وحيوانها الذكى . وليس لأحد أن يوجه

إلى لوماً إذا كنت لأعرف استعمال آلات الموسيقى ، أو لم
تعود أذن نغماتها الشجية ، وروحها الفياضة التي تصفى
إليها قلوب الحيوان قبل الإنسان. فهي رسول العاطفة ونداء القلب
بل هي ذلك الشعور الفياض الذي يتدفق من قلب العازف
فيتقبله قلب السامع وسرعان ما تبدو عليه أعراضه . حتى أنها
بتلك السرعة المدهشة ، ربما حوالت ذلك الشخص إلى صورة
نفسية ثانية لمصدرها . فإن كان مصدرها الفرح ظهرت
أعراض الفرح ، وإن كان مصدرها عاطفة أخرى ظهرت
أعراض هذه العاطفة فهي كما قيل في وصفها قادرة على أن
تضحك وتبكي وتسر وتحزن وتسر سروراً حزيناً وتولم
ألماً لذيذاً وتثير في النفس الشجاعة حتى تدفع إلى الموت .
لم أتعلم شيئاً من الجمال فحياتي الأولى التي هي وقت
الغرس خالية من كل هذا .

بعد إتمام الدراسة الابتدائية التحقت بإحدى مدارس
الحكومة الثانوية . لم أشعر فيها بفرق كبير بينها وبين
ما تعودت في دراستي الابتدائية من حيث شدة المعاملة ،
وجفاف التربية ، مع زيادة فروع التدريس وحشر المناهج
بمعلومات عقيمة لا تفيد فائدة تذكر ، فقد كثرت مواد
الدراسة وكثرت معها ساعات العمل تبعاً لذلك والواجب

المنزلى وأزمة الامتحانات التى يتلوه بعضها البعض ، وملء
الآذان بأحاديث كثرة الرسوب فى الامتحانات العمومية ،
حتى أن نسبة الناجحين فى بعضها لا يزيد عن عشرين فى كل مائة
كل هذا شحذ همى لأن أجود وأجتهد ، وأحفظ وأرتل ،
سواء أأحببت الموضوع أو لم أحبه . أصبحت اشتغل النهار
وجزءاً من الليل لأنى أخاف شبح الرسوب وربما كانت
النتيجة التفكير فى الخلاص من تلك الحياة المؤلمة كما هى
العادة سنوياً وانتشار الأخبار بأن عدداً من الطلاب
« انتحر بسبب رسوبه » وهؤلاء قد صادفهم سوء الحظ
فوقعوا فريسة لطريقة الامتحانات العقيمة وجهل بعض
الآباء وقصر نظرهم فى أنهم لا يرون عذراً لولدهم سوى
الاهمال وعدم الالتفات . يزيد على هذا ما تنفوه به السنة
الأهل ؛ ومن لهم بهم معرفة من أتحال أحط الأسباب
وجبك خيوط الأشاعات التى تخيلتها عقليتهم والى أصبحت
جزءاً من حياتهم وهى حب تدخل بعضهم فى أمور البعض
والوشاية والنميمة .



« حياة كلير الأولى »

في ضاحية من ضواحي مدينة ليفربول الواقعة على نهر الميريزي « Mersey » الذي يخط مجراه في مقاطعة لانكشير على الساحل الغربي لإنجلترا ولدت كلير من والدين من الطبقة المتوسطة . مركزهما في حياتهما الاجتماعية على وجه التقريب يماثل أو يزيد قليلا عما لوالدى من مكانة في وسطهما . إلا أن مانالته كلير من تربية وثقيف يفوق كثيراً ما حصلت عليه لأنها ربيت ونشأت في وسط مدنية تقوم على أساس قوى متين من تجارب الأيام ، والجد والاجتهاد في حل ما يلاقيه الفرد والأسرة والأمة من صعوبات الحياة وتغير الأحوال تغيراً سريعاً يتطلب يقظة وحرصاً .

الشعب البريطاني من خيرة شعوب الأرض : عرف معنى الحياة فقدرها وأقسم كل فرد من أفرادها يمينا مقدساً على نفسه أن يؤدي الواجب عليه لنفسه ولأمة إلى آخر قطرة من حياته .

ولكى يفهم القارئ شخصية كلير في شبابها يجب على

أن أحاول وصف العوامل التي أثرت في تربيته الأولى ؛
وكيف أن التربية المنزلية وما يتلقاه الطفل في حياته الأولى
يكون الأساس لبناء المستقبل ، والنواة لسرحة الحياة .

ثبت كليل مشموله بعناية والدة أخذت قسطها من التربية
والتعليم فعرفت أن عليها واجبا لابنتها الصغيرة الناشئة
أكثر من حب الأم لبنتها . فعملت على أن تكون حياة
الفتاة الصغيرة تبعا لقانون الصحة والتربية ؛ وإن أول ما يرسم
في ذهنها الخالي وما يطبع على عقلها الناشء هو حب
الفضيلة والوطن وجمال الطبيعة .

ثبت كليل قوية صحيحة لم يقف في طريق نموها مرض
أو ألم . والحياة في عينيها الصغيرتين وفي عقلها الذي هو في
دور التكوين أشبه بوصف الكتب المقدسة لجنة رضوان .
عندما بلغت السادسة من عمرها أصبحت عاداتها ألا تقول
إلا الصدق ولا تتفوه بدنى ، اللغاة وجافها وألا تشعر إلا
بالحب الذي غرسه فيها والدتها لمن حولها سواء أكان انساناً
أو حيواناً . فان أحب ساعة إليها في حياتها الأولى هي الساعة
التي تقضيها مع « جيني » كليلها الصغيرة ذلك الحيران المخلص
الأمين الذي شارك تلك الفتاة الصغيرة في عاداتها وقلدها في
حركاتها وسكناتها ؛ وأخذ على نفسه عهد وقايتها وحراسها -

تعودت الأم أن تأخذ الفتاة « كير » يصحبها « جيني » إلى حديقة الضاحية الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف التي تقع على شاطئ النهر ، فيواصلون السير فيها ؛ هنا وهناك تغرس الأم ذوقاً سليماً في ابنتها ، فتلفت نظرها إلى جمال الطبيعة الذي يفوق كل جمال ، في ألوانها المختلفة ، وطيورها ذات النغمات الشجية : وصفاء مائها وغير ذلك مما حولها . وبطبيعة النشء الصغير وحب المعرفة والاستطلاع تنهال من ذلك الفم الصغير أسئلة ساذجة .

لِمَ هذا يا أمّاه ... ؟ وكيف ذلك ... ؟ وما اسم تلك الزهرة أو النبات أو الطير أو الحيوان ... ؟ إلى غير ذلك مما يقع عليه نظرها أو يحول بخاطرها .

تبسم الأم عادة في وجه ابنتها ثم تحاول الإجابة على ما طلبت في صوت منخفض عذب وفي لغة سهلة واضحة حتى تتمكن الفتاة كير من فهمها وطبعها على ذاكرتها .

تسمع كير شرح ما طلبت في هدوء وسكينة ثم تفتقر شفتاها الصغيرتان عن ابتسامة شكر وينطق لسانها « أشكرك يا أمّاه ... ! » في المنزل ترى الفتاة كير الصغيرة إما تقرأ في مكتبتها الكتب العديدة المؤلفة للأطفال في سنّها ، أو تروح وتغدو في الحديقة يصحبها « جيني » أو هي على « البيانو » تمرن أصابعها

الصغيرة وتسمع أذنيها نغمات الموسيقى. فإن أجادت مدحتها والدتها وأن أخطأت لفقت نظرها لذلك بكل لطف وهدوء أما مارأته كثير من والدها فهو قليل: حيث أنه في العادة يترك المنزل قبل الثامنة صباحاً إلى العمل ويعود حوالى الخامسة وفى هذا السن يتحتم على كثير أن تذهب إلى الفراش قبل الساعة السابعة ولكن بالرغم من الوقت القصير يجتهد الوالد فى أن يقوم بنصيب من الحب لابنته. وأن يطفىء ظمأ الشوق إليها فيضمها إلى صدره ويقبلها قبلة أبوية حارة ثم يضعها على إحدى ركبتيه فتتخذ منها كثير مقعداً مريحاً وتبدأ بسرد مخاطراتها طول اليوم وما يمكن أن يحول بخاطرهما -

وبعد أن تنتهى يستمر الوالد فى الحديث فى سكينته وهدوء فيشرح ما جرى من الحوادث الخارجية التى بهم كثير سماعها بطريقة تجعل فتاته الصغيرة متشوقة لسماعه وأذنها مصغية لما يقول .

حوالى السابعة مساء تقبّل الفتاة أبويها ثم تذهب إلى الفراش

عندما بلغت السابعة من عمرها التحقت بمدرسة الضاحية الابتدائية للبنين والبنات. وهنا لا تزال الحياة حلوة جميلة ملؤها العناية والعطف والحب. فاتخذت كثير من معلمتها صديقة وفيه

وتشعبت بحبها حتى صعب عليها الاجابة عندما سئلت .
« أهما تفضل : عناية الأم وحبها في المنزل - أم صداقة
معلمتها ووفاءها في المدرسة ... ؟؟ »

أخذت قسطها من التعليم والموسيقى وفن التصوير واستعمال
الألوان المختلفة والتمرن على اخراج ما حولها من جمال على
اللوحة والورق .

أعطيت الوقت الكافي لتشبع جسمها النامي الصغير المملوء
بالحركة والنشاط فأصبحت تتمرن على لعبة « التنس » « والهوكي
Hokey ، والجهاز وعلى قليل من ألعاب الجولف والكر كيت
« Golf & Cricket » وكرة السلة « Basket Ball » وغيرها
من الألعاب المختلفة .

أجتهدت معلماتها في معرفة ما خلقت له ، وما لديها من مواهب ،
وأى العلوم أحب اليها من غيرها ، ليُحاولن تنميته وإظهاره
والاستكثار منه دون غيره فان كانت نفسها تميل إلى حب الفن
والجمال زيدت لها ساعات الموسيقى والفن والتصوير . وان
كانت تحب التفكير والبحث والتنقيب زيدت لها ساعات
العلوم ؛ وغير ذلك من مختلف علوم التربية في أمثال تلك المدارس
مضت « كليل » في تلك المدرسة خمس سنوات من أسعد
أيام حياتها لم تعرف سأمًا أو مللاً ، أو قسوة أو شدة ، لا تحمل

كرهاً أو بغضاً لمخلوق من المخلوقات . بل كثر عدد أصدقائها من البنين والبنات والمدرسين والمدرسات وأصبح الكل اخوة تحت سقف بناء واحد . وقد اتفق الجميع على أن الكذب والخيانة رذيلة . والصدق والشجاعة والعطف وأداء الواجب وحب الوطن . . فضيلة .

بعد ذلك التحقت « كليز » بمدرسة ثانوية للبنات واستمرت دراستها في جو أشبه بما ذكرت من العطف والحب . فما جسمها وعقلها ودبت في نفسها آمال الشباب ووجوب الكد والجد لتحقيقها فاختارت قسم العلوم لما تشعر به من القدرة والكفاية للبحث والتفكير واتسعت دائرة اطلاعها فأصبح الكتاب لا يفارقها في غدواتها وروحاتها وكثر عدد أصحابها ، وامتازت على أقرانها في لعبة « الهوكي Hokey » حتى أنه وقع عليها الاختيار وهي لا تزال في سنتها الثانية أن تكون « كابتن » فرقة المدرسه لتلك اللعبة ؛ وازداد نشاطها الرياضي فأصبحت تجيد « التنس » « والعوم » ولم تنس الموسيقى والتمثيل والدرام وقراءة تاريخ شعبها المجيد لتروى من آن لآخر ما غرسه فيها والداها ومعلماتها من حب الوطن ووجوب التفكير فيه والعمل على رفعته وسعادته على هذا النحو مضت « كليز » خمس سنوات أخرى في تلك المدرسة جازت في آخرها إتمام الدراسة الثانوية (Matriculation) الذي يؤهلها للحياة الجامعية .

السفر

نظام الجامعة المصرية ، كما هو الآن - فكرة تناولها أيدي
الوزراء السابقين ، وتكدست بأوراقها وتصميمها قماطهم ، ونالت
من الإهمال ماتت له معظم مشاريعنا الاجتماعية على أيدي
وزاراتنا المتعددة وسياساتنا المتغيرة حتى أتاحت شجاعة ماهر ، مع
تعاضد المليك ؛ أن تخرج المشروع من حيز القول الى حيز العمل
وكنت من أول فرقة اندمجت في سلكها ، في عامها الأول ؛ حيث
قضيت في كلية العلوم التي هي إحدى كليات الجامعة ، أربع سنوات
مشيت في آخرها وأنا أقدم رجلا واثورا أخرى إلى امتحان
درجة البكالوريوس ، لا لأنني أقل من اخواني الطلاب في
المستوى العقلي قدرة وكفاية بل لأن عامي الأخير قضيته بين
اللعب والمرض وكتابة الخطابات الشديدة الى والدي لبدئه
إهمال إجابة مطالبي مع أني كنت أعرف حق المعرفة ظروفه
التي اضطرته الى ذلك

تركت القاهرة وأنا في يأس من نفسي ؛ أفكر كيف ارتب
وقتي في الحفظ والاستدكار في العام القادم . . . وماذا يكون
عذري للأهل والأقارب . . . ؟

استقر رأيي أن أتخاشى مجتمعات القرية التي تنهال عادة فيها
الأسئلة من أناس سواء أكان يعنيتها الأمر أو لا يعنيتها ، وإن أنا
أخرجت فسيكون جوابي « اننى لم أجلس الى الامتحان ذلك العام ،
- فى الوقت نفسه صارحت والدى بالأمر فتغيرت ملاحظه قليلا
ثم أنسل من الغرفة دون أن يفوه بكلمة وتركنى لنفسى .

مرت بعد ذلك أيام قلائل قل فيها أكلى وكثيراً ما شعرت
بدوار . وفى الليل اعترانى الأرق حتى بدأ التغير فى صحتى
والانحلال فى قوتى . لاحظت على ذلك والدتى فأمسكت قلبها
بيدها ثم أرادت أن تعرف السبب .

مالذى اعتراك وليست هى عادتك ذلك الخلو الطويل
بنفسك والوحدة والسكون . . . ؟ ابتسمت شفتاى شاكراً
وتحرك لسانى

ليس هناك شىء . يا أماه سوى أنى أشعر بقليل من التعب
بعد العام الدراسي الطويل .

فى صباح يوم من أيام أوائل يونيو وجدت والدتى بجانب
الفراش تريد أن توقظنى لتقول أن صديقاً لى وهو أحد
أقاربها قد حاز دبلوم الطب وأنه وصل الى القرية منذ يومين
وللآن لم أذهب لتهنئته .

ابتسمت لها كعادتى ووعدتها أن لسانى سينطق له بتهنئتى

القلبية بأسرع ما أستطيع .

غادرت منزل هذا الصديق إلى غرفتي، وكانت الشمس محرقة
وما بقي من النسيم على الأرض ساخناً لا يطاق . فسرت أتقل
من مكان إلى آخر؛ ومن ركن إلى ركن ؛ وليست لي شهية
إلى الأكل أو النوم .

حوالي الساعة السادسة بعد ظهر اليوم ؛ وكل شيء ساكن
هادئ . - سمعت دقة على الباب . . خرجت لأرى من هذا .

تلغراف . . . ! ! لمن . . . ؟ لحضرتك . . . ! ! لحضرتي . .
تمت في نفسي واهزت جميع أطرافى ولا بد أن الغلام
قد لاحظ على ذلك فقال على الفور

هذه أخبار ساره يا افندى وأنا أريد البقشيش

صحبتـه إلى غرفتي حيث أعطيته نصف ما معى من النقود
بعد أن وعدنى أنه لن يتفوه بشيء لأحد
« أهنتك ونفسي »

مختار

أهو حلم أم معجزة من المعجزات . . . ربما يكون مختار
قد أخطأ . تسلمت من الغرفة وأرسلت إليه ولصديق آخر برقية
لأسألها ما إذا كان هذا صحيحاً فتسلمت الرد صريحاً بما جعلنى
أصدق . . .

مضت بعد ذلك أيام قلائل خلوت فيها إلى نفسى مفكراً ..
الآن وقد قطعت الطريق بمسافيه من صعوبات متراكمة
وانتهت الوسيلة التي تؤدي في نظر طلاب العلم في مصر إلى غاية
واحدة وهي وظيفة الحكومة سواء أَسـتفدت بعلمك فيها
أم قبرته . وكأنك لم تجلس على ذلك الكرسي الخشبي الجامد
الساعة تلو الساعة، واليوم بعد اليوم، والسنة بعد السنة، أما مصغيا
لأستاذك، أو مكبا على درسك . . . فماذا أختار لنفسي . . . ؟

تركت القرية إلى القاهرة وأنتهى الأمر بعد سعى حثيث بأن
أتاحت لي الفرصة أن أغادر مصر إلى إنجلترا عضواً لبعثة دراسية
في أوائل ديسمبر سنة . . . ركبت إحدى بواخر المساجيرى
ماريتيم . ولما كانت هذه أول رحلة لي على مياه البحر الصافية
الزرقاء فكل شيء وقع نظرى عليه ملأنى غبطة وسروراً . . .
نسيم البحر العليل ؛ منظر شروق الشمس وغروبها ؛ الأمواج
تتحطم على مقدمة السفينة .

أما الحياة الاجتماعية على ظهر السفينة فرأيتها في وقتها
ملأى بالانشراح والاعتباط . ولكن أقدرها الآن أنها كانت غاية
في الهدوء نظراً لقلة عدد الركاب . وكان بينهم كثير من رجال الدين
عائدين من الشرق الأقصى إلى وطنهم فرنسا . تمتعت نفسى
أحسن . تمتع مدة الرحلة وانفتحت شهيتى لذلك الطعام الجيد

الذى يفوق بكثير ما تعودته خصوصا حلء البراندى، محل الماء .
تنفست الصعداء دليلا على ما شعرت به من ارتياح وسرور
عند وصولى الى الشاطئء البريطانى لأنى لاأتكلم سوى الانجليزية .
وكنت بعد ساعات قلائل بلندن حيث قضيت الليلة بها وغادرتها
فى الصباح الباكر إلى ليفربول والتى بجامعة التحقت وانخرطت
فى سلك طلابها .

ليفربول

قضيت ما يقرب من الاسبوعين قبل أن أتمكن من تعرف
طريقى من الجامعة إلى البيت ، ومن البيت إلى مختلف محلات
البيع والشراء ودور التمثيل وما أحتاج لزيارته من الأماكن .
ربما يدهش القارئ من صرف هذا الوقت الطويل فى
معرفة مدينة منظمة كليفربول . ولكن عذرى فى ذلك أن
معظم شوارع المدينة متشابه وكذلك منازلها . فالشارع مهما
امتد تقوم على جانبيه منازل فى حجم واحد ، وفى ارتفاع
واحد . وعلى وجه التقريب فى هندسة واحدة - وتلك ما تمتاز
به العمارة المنزلية الحديثة فى إنجلترا سواء أكان ذلك فى المدينة
أو فى القرية . وأهم ما يشاهد فيها أن جميع مباني كل حي من

أحياء المدينة في ارتفاع واحد . وكذلك شوارع الحي على نمط واحد . وجميع المنازل الواقعة على أحد جانبي الشارع في حجم ونظام وهندسة واحدة . فيرى الزائر أن بكل منزل حديقة مهما صغر حجمها - وكذلك لا يسكن المنزل في كثير من الأحيان أكثر من أسرة واحدة .

مثل هذا النظام لا يدل فقط على ذوق سليم في فن العمارة وجمالها في توخي البساطة والتشابه بل أن له معنى روحياً كبيراً ؛ قيمة وتأثيراً في نفس الرائي لأنه يجعل التمييز صعباً ؛ وفي بعض الأحيان مستحيلاً - بين الحالة المعيشية للأسرتين متجاورتين ، بل لعدد كبير من الأسر التي تسكن على طول الشارع أو في المنطقة بأسرها لأن الجميع تحت غطاء متشابه .

هذه حالة لم تعد عيناى فى مصر . فى القرية المصرية الكوخ بجانب القصر - أو الفقير المدقع بجانب الثروة الطائلة - وفى المدينة قلما يرى الناظر منزلين متجاورين فى حجم واحد أو ارتفاع واحد وقليل جداً من المنازل ما تسكنه أسرة واحدة . أما منظر الأهلىن فالكل فى زى واحد من الرأس إلى القدم . فهنا القبعة (البرنيطة) غطاء لرأس الجميع - إذا قورنت بالعمامة على اختلاف أنواعها وأوزانها ، والطربوش الذى لا يغطى شيئاً من الرأس سوى الجزء المغطى بالشعر والذى

هو أخرج الأجـزاء إلى الكشف والتهوية - واللاسة واللبدة
والقلنسوة إلخ .. أما لباسهم فهي (البـذلة) كما نعرفها -
وهي آخر ما وصل إليه بحث الإنسان من حيث سهولة الحركة
فيها والراحة وحسن الهندام .

وغطاء القدم الحذاء يشترك في ذلك الوزير والحقير
ولست أذكر أن نظري وقع على قدم عارية في الطريق مدة
الثلاث السنوات التي قضيتها بإيفربول .

يتعذر على الأجنبي وخصوصاً الشرقي منهم أن يفرق
بين بعضهم والبعض الآخر لشدة التماثل في أجسامهم وألوانهم
حتى وفي معظم حركاتهم - ففي القطار أو الترام سكوت عام
لا يتخلله سوى أقدام الصاعدين أو النازلين - وفي الشارع
مهما ازدحم واكتظ فإن أجنحة السكون تظل ترفرف عليه -
الكل يخطو بكل هـدوء وسكينة إلى الجهة التي يرغبها في غير
تردد أو تلفتٍ إلى خلفه أو يمينه أو يساره وربما لأول نظرة
تتصور عقلية الشرقي منا لعدم تعوده ذلك المنظر أن
هؤلاء القوم من رجالهم إلى نسائهم وأطفالهم مثلهم كمثل
تماثيل تتحرك لأرواح فيها ولا حياة .

سأنتقل الآن إلى مجمل وصف الحياة الجامعية وأود أن أعبر
عما يجب على من اعطاء كل ذي حق حقه فأذكر معالي على

ماهر باشا وسعادة الأستاذ الجليل والمربي الكبير احمد بك
لطفى السيد ومن ساعدوهم على اختيار أكفاء الأساتذة
الأجانب الذين استقدموا إلى جامعتنا المصرية بكل مدح
وثناء . فان كان في الجامعة عيب أو نقص فانما بحمل معظمه
الطلبة . وهؤلاء يُغذرون لأن أساس تربيتهم وُضع خلافا
لما تحتاجه الحياة الجامعية .

فكرة الجامعة في أساسها هي حرية القول والعمل في
دائرة القانون ؛ تشمل معهداً أو معاهد لبناء الشباب و تثقيفهم .
ومفروض فيهم أن كل فرد من أفرادهم يعرف الواجب عليه
ويعمل لأدائه - وأن الجميع يشترك في ذلك : العميد والاستاذ
المسن والطالب المبتدئ اجتمعوا لغرض واحد وهو
البحث والتنقيب في مختلف فروع العلوم والآداب والفنون .
تربطهم في ذلك الاخوة والصداقة والمحبة التي تولدها فيهم
الروح الجامعية - فهي في كلمتين « روح التعاون » .

وفرق ما بين الحياة في جامعة ليفربول وما بين ما تعودته
في جامعتنا المصرية شاسع . ففي وقت الدراسة والعمل
الأستاذ أستاذ يشرح درسه ويلقيه بكل وضوح وجللاء دون
أن يقف في سبيل ذلك همس أو جلبلة من شأنه افساد ذلك
السكون والهدوء . وفي الوقت نفسه الطالب يطلب العلم بجميع

حواسه وفي رغبة شديدة يظهر أثرها على ملاحظته فترى عينيه مقيدتين بالأستاذ؛ وحركاته وأذنيه مصغيتين إليه؛ وقوة تفكيره وذهنه حاضرة.

خارج الدراسة سرعان ما يُنسى الفرق؛ فتجد الطالب يُدخن من علبة سجائر أستاذه، وترى أن معاملته بعضهم لبعض هي في جميع وجوهها معاملة الصديق لصديقه، لا فرق فيها لسن أو مركز أو جاه.

أما وقت فراغ الطلبة وهو أهم ما أريد وصفه من نواحي حياتهم الجامعية - هو في الحقيقة مقياس هذه الحياة عندهم. فعند انتهاء المحاضرات تمتلئ بهم فروع مكاتب الجامعة كلٌّ يبحث ويطلع فيما يعنيه - وإن هو تعب من قراءة فرع تخصصه ولنفرض العلوم؛ طرق باب الآداب أو التاريخ أو الشعر... أو غير ذلك كلٍّ بحسب ميوله ورغبته مما يجعله ملهاً بشيء من كل شيء. ولهذا تجد أن متوسط ما يعرفه الطالب البريطاني من المعرفة العامة « General Knowledge » يفوق أمثاله في الأمم الأخرى.

أما ما يتناوله الطالبات والطلبة من الحديث فيدور معظمه حول محور واحد وهو « السبورت Sports »، الألعاب الرياضية، والفن من القطع الموسيقية الحديثة والفكاهة

والدرام والجو المتغير من ساعة لأخرى له نصيب كبير
في حديثهم .

الالعب الرياضية على اختلافها تُكوّن معظم المجادلات
والمناقشات التي تجري في صوت هادئ ، حتى أن حبها امتزج
بدماء الحياة الانجليزية . فالذي تسمعه في الصباح هو مثل ما تسمعه
طول اليوم ، وفي المساء سواءاً أ كنت في القطار أو الترام أو في
مجمع خاص . وأهمها مناقشة أخبار نتائج كرة القدم - « والرجبي
Rugby ، « والجولف Golf ، « والتنس - والعوم - والجري
« والكريكيت Cricket ، وسباق الخيل والمراهنات عليه وغيرها
يصعب على أن أتصور أن هناك طالبة أو طالباً لم يمارس
في وقت من أوقات حياته إحدى هذه الرياضات « السبورت
Sports « التي ذكرت .

فستان بين قضاء وقت الفراغ عندهم وعندنا . . . !
وقت فراغنا ينقضي بين قراءة الجرائد التي تحتوي على قليل
من الثقافة - والاشتباك في مجادلات سياسية لافائدة فيها - ضياع
معظم الوقت في مختلف المقاهي بين حديث التناسل وأي
الطرق أصلحها لاجتذاب المرأة ووقوعها فريسة للشهوة الدنيئة .
وبها لعب الررد « الطاولة » و « الضمنو » و « البوكر »
و « الكونكان » وشرب القهوة واحتساء الكحول على مختلف

أصنافه وأنواعه . . وكثير من ذلك مما يعرفه كل مصرى
زار المدينة : —

في الجامعة

انتظمت في سلك الدراسة وبدأت أحضر محاضرات
قسم . . وكان به خمس عشرة فتاة وأربعة من الشبان : الكل
مُصنَّع لما يشرحه المدرس أو المدرسة - أما أنا فلعدم
اعتيادي هذا المنظر في كثير من الأحيان لم أدر ما يُقال . بل
تنقل عيناى من فتاة الى أخرى ، ومن وجه الى وجه ، ثم أصبح
في سلسلة من الأفكار . . أيهن أجمل وجهاً . . ؟ أيهن أرشق
جسماً . . أيهن أكثر جاذبية وأخف روحاً . ؟ أيهن . . وأيهن ؟
وأخيراً أيهن ترضى أن ترافقنى وتصادقنى فى وحدتى وغربتى . ؟
ثم لا يابث أن يأتى الجواب المؤلم من عميق نفسى مع زفرة حارة
لا واحدة . . !! ولم . . ؟ لأسباب كثيرة . . أهمها - أولاً انه
ليس فى شىء من الرشاقة والجمال : فقصر قامتى وملاح وجهى
العادية ذات العينين الصغيرتين السوداوين تكفيان لغض
الطرف عني - ثانياً انهن ينظرن نظرة خاصة إلى الأجانب
وخصوصاً الشرقي منهم الذى لا يرى فى المرأة سوى فريسة

لشهوته النفسية الدنيئة مهما كلفها ذلك من السقوط إلى الحضيض ،
وهتك عرضها ، وضياع شرفها . وثالثاً أنني لست من أرباب المال
حتى يتيسر لى أن أضيعه بغير حساب وأستعمله فى اجتذابهن ،
وشراء عطفهن ، ومودتهن . لم أكتف بملك المحادثة بينى وبين
نفسى مرة أو مرتين ، بل تكرر ذلك وتعدد بتعدد المحاضرات
وساعات الدراسة . وربما كان لى العذر فى ذلك فان معظم ماسمعه
من حكايات وأقاصيص وحديث خاص فى السنوات الأربع
الماضية زرع فى نفسى حب المرأة ، وكم وددت الجلوس مع
واحدة أو اثنتين منهن فلم أستطع فى كثير من الأحيان إلى ذلك
سبيلا ، وها أنا الآن بين خمس عشرة منهن !! . .

فى يوم من الأيام احتجت كتاباً فصعدت إلى المكتبة
للمرة الثالثة فى مدة الشهرين تقريباً لأنى - كما تعودت ، لا أحب
القراءة كثيراً ولا أكلف نفسى إلا حفظ ما ألقى على من
المحاضرات : لعلنى أن الامتحان لن يخرج عنها . وغرضى الوحيد
هو أن أنجح وأحوز الشهادة . . كما هى الحال بين إخوانى
الطلبة المصريين .

دخلت بخطوات متثاقلة انظر من رف الى رف ومن قطر
إلى قطر فلم أجد الكتاب . لاحظت أمينة المكتبة (وهى
فتاة فى مقتبل عمرها) علامات الارتباك والحيرة بادية على

وجهي فتركت مقعدها ، ودنت مني في هدوء وسكينة ، لئلا تزعج
القارئین والقارئات . . وهمست . . هل في قدرتي مساعدتك .
مستر . . ؟

« أكون لك شاكرآ إن استحضرت لي كتاب « فلسفة
البيولوجيا لمؤلفه جونستون ،

ذهبت الفتاة إلى مكان الكتاب فلم تجده . ورجعت ويدها
قائمة الكتب المستعارة وقالت « الكتاب الذي طلبته مستعار
مستر . . . ! ! »

« أشكرك . . » ثم وليت وجهي نحو الباب ووضعت يدي عليه
لأفتح فسمعت من ورائي همساً فالتفت .

- « الآنسة التي استعارت الكتاب جالسة هنا - فاذا لم يكن
لديك مانع أكون مسرورة بتقديمك لها وسؤالها أن تسلم اليك
الكتاب بعد أن تنتهي منه » - همست الفتاة بذلك في أذني
واشارت بأصبعها نحو الفتاة الاخرى

رددت في نفسي وقد خفق قلبي قليلا . « عندي مانع . . ! !
افترت شفتاي وتحرك لساني بسرعة ولهفة على الفور .

« لا - ليس عندي مانع ، بل بالعكس أكون لجميلك هذا
شاكرآ . . ! ! »

اتجهت الفتاة نحو الجانب الشرقي من المكتبة حيث تجلس

فتاة فى نحو الحادية والعشرين من عمرها كثيراً ما لحظتها بنظرى فى أثناء المحاضرات ، وأوقات العمل ، لفتنة جمالها وحسن قوامها . شعرها ذهبى أصفر لامع تزیده رونقا وبهاء أشعة شمس الصباح التى تتسلل من النافذة - وهى ذات عینین زرقاوين ووجه مستدير كل أجزاءه دقيقة متناسبة - ذات قد أهيف ومنظر جذاب ويبلغ طولها نحو خمسة أقدام ونصف . وقفنا بجانبها ما يقرب من نصف دقيقة وهى مكبة على الدرس والتحصيل - فدنّت منها أمينة المكتبة وهمست . ! أطلب منك السماح والعفو أرجو ألا تكون ازعجناك

رفعت الفتاة رأسها فى عظمة وجلال ونظرت قليلا إلى اليمين وكأن فى نظراتها سهاما مصوبة . استمرت الأمينة وأشارت بيدها اليسرى الى الفتاة الجالسة . . هذه مس « كير اسمث » . تقدمت يدي اليمنى وأحيت رأسى قليلا ونطقت على الفور . اسمى . . فقدمت الى الفتاة يدها وقالت : كيف حالك . . ؟
أشعر بسعادة لمقابلتك - مس . . !

تركت المكتبة فى حالة أسوأ جداً منى وقت دخولها . . واست أدرى إذا كنت قد نزلت ماصعدته من السلم درجة درجة أو كل ثلاث درجات أو أربع فى قفزة واحدة . . ذهبت إلى مقعدى وأنا أردد . . لقد كلمت أحداهن . . ! وهى جميلة

جذابة . . . في صوتها الشفقة والحنو . . . حديثها إلى عن الكتاب
كأنه ماء زلال . . . وصوتها موسيقى عذب . . . و . . .

غرقت في بحر من التفكير، وجلست إلى مجهرى
« ميكروسكوب ، صامتاً لأحراك بي ، ومكثت على تلك الحال
حتى أيقظتني هزة بيد على كتفي الأيمن . . . التفت حولى . . .
« ما الذى تفكر فيه - أشعر بألم . . . أم هو ألم الغربة
Home Sickness ! . . »

« لا أشعر بشيء، صحتى جيدة ، أشكرك يا دكتور . » فرد قائلاً
« ولكن ليست عادتك أن تتأخر عن الخروج للغداء بعد
الواحدة ، . . ! أجبت

« عفواً - سيدي - أقول لك الحق أنى نسيت نفسى »
وقمت مسرعاً . .

تعودت أن أتناول طعام الغداء مع صديقين وأحياناً ثلاثة
من اخوانى الطلبة المصريين فى محل لا يبعد أكثر من عشر دقائق
عن الجامعة - وفى هذا اليوم وصلت متأخراً حوالى نصف ساعة
فبعد أن حيينهم . قال أحدهم واسمه « . . . » ، على الفور

نحن على وشك الانتهاء ، وكنا نفكر فى وفى صحتك
خصوصاً قد ذكرت لنا بالأمس أنك تشكو عسر هضم من كثرة
أكل البطاطس والروستيف (Roastbeef) الذى لم تتعوده بعد

أجبت - « أشكركم - ليست صحتي هي السبب في تأخيري
وأنا » وأخذت في سرد ما حدث بالمكتبة . قبل أن
أنهى من حكايتي قاطعتي صديق آخر بقوله « يا شيخ
سيبك من الجامعة وبناتها - ليس فيهن فائدة !! يملؤهن
الكبر وهل نحن هنا رايعين نشغل عواطف - هوّ فيه أحسن
من بنات قهوة ومحل رقص والطريقة العملية !! »
فأجبت - أوف - الطريقة العملية - هي كل ما نفكر فيه .
وبعد الانتهاء يعقب ذلك ملل الحديث وسآمة - مثل تلك
الصديقة لا تعرف معنى للحياة ولا تفكر فيما حوالها إلا
بعين ضيقة . ومحور حديثها يدور حول المسرح والخيالة
« السينما ، ونجومها . والفساتين الجميلة والمشروبات
المنعشة و »

لم أته من الرد عليه حتى اشتركتنا نحن الأربعة في جدال
عنيف . وبدأنا نتكلم جميعاً في وقت واحد ، كل منا يعزز رأيه
حتى ابتداً صوتنا يعلو . ونظر إلينا من حولنا - فهم أحدنا
من مكانه وقال : « اعملوا معروف ! اقفلوا باب هذا الحديث
فان جميع الناس ينظرون إلينا في دهشة واستغراب . »

الى هذا الحد انتهت المجادلة ولم يقنع أحدنا الآخر
- وليست هذه الحادثة هي الأولى من نوعها فانه كثيراً ما

حدث منا ذلك - ولست أتذكر أنه في خلال الشهرين خرج معظم حديثنا عن « النساء والفتيات » ومخاطرات كل منا مع بعضهن وعن الأفلام السينمائية . . وبالجملـة كنت أشعر أن جو وقت الغداء لم يتغير عن مثل ما تعودته في مصر سوى أن أحملنا كواكب السينما ونجومها محل سياسة الوفد والأحرار الدستوريين والاتحاديين وغيرهم من الأحزاب المصرية المتعددة .

« ماري »

في شهر مارس شعرت بحاجتي الشديدة إلى تعلم اللغة الألمانية : لأن معظم مراجع علم الحياة مكتوبة بها ولأن علماء الألمان لهم القسط المعلى في محاولة فهم مختلف « ظاهريات علم الحياة أو البيولوجيا » واتساع ميدانها . فهو علم يشمل جميع ما تحاط به الكائنات الحية من ظواهر طبيعية أو عوامل مفروضة عليها بحكم الوسط الذي تعيش فيه . لجأت إلى استاذ اللغة الألمانية بكلية الآداب بالجامعة فاعتذر في رقة ولطف بعدم امكاني ممارسته ذلك العام متأخر طلبة ثم صمت برهة وقال :

هناك فتاة وصلت من ألمانيا هذا العام وهي تدرس
آداب اللغة الانجليزية ، كانت قد أبدت رغبتها في إعطاء
دروس خصوصية في الألمانية أحب ذلك . . ؟
أجبت « هل لها خبرة في التدريس قبل الآن . ؟ »
نعم . فهي حاصلة على دبلوم في التربية من جامعة
همبرج . وفوق ذلك فإني أؤكد لك أنك ستكون مسروراً
بالنتيجة « إن أنت حفظت ما أخذت » . . ؟
ابتسمت من جملة الأخيرة وشكرته ثم أعطاني
العنوان لأكتب لها .

بعد يومين وصلني خطاب تدعوني فيه لتناول الشاي
في منزلها وتساءل أي وقت يوافقني لذلك والأفضل . . .
ماري شلر .

في اليوم وفي الساعة المحددة كنت على باب منزلها
فضغطت الجرس وإذا بفتاة معتدلة القوام يبلغ طولها
نحو خمسة أقدام ونصف ، تغطي رأسها خصائل من الشعر
الكستني اللون ذات وجه مستدير تسطع فيه عينا زرقاوان .
وفم صغير تتوجه شفقتان رقيقتان وبالجملة فهي رشيقة جذابة .
ابتسمت الفتاة في وجهي وقالت « أظنك مستر »
نعم قالت : تفضل بالدخول . . ؟ قلت أشكرك

وبعد أن أغلقت الباب وكان المطر يهطل غزيراً كما هي عادته في هذا الوقت من السنة ، خلعت المعطف والبرنيطة وحملتها الفتاة إلى حيث علقها قرب النار لتجف . ثم رجعت إلى وقالت : هل لك أن ترافقني إلى غرفة الجلوس ؟

صحبتها إلى غرفه كبيرة تحتوي على أساس فاخر يدل على سعة العيش ورخائه . وفي منتصف الحائط القبلي موقد التدفئة ، وقد وقف أمامه رجل وسيدة ، عند وقوع نظرهما على تقديما نحوي بخطوات مسرعة . قدمت الفتاة كلاً منا للآخر . « مسٹر » « مسز چونس » وزوجها « الدكتور چونس » . بعد أن تبادلنا التحية التفتت الفتاة إلى وقالت :

مارى سُٹر اسمی . فانحنيت قليلاً ثم أجبت « مسرور لمقابلتك مس سُٹر » . جلست بجانب الموقد وبدأت الحديث مسز چونس عن حالة الجو . وانها تتصور أن من الصعب على ساكن مصر أن يتحمل الجو الانكليزي لبرودته وكثرة أمطاره ثم سألتني اسئلة عدة - هل تحب هذه البلاد . . ؟ كم قضيت هنا وهل تحب ليفربول ومن فيها . . ؟

اشترك في الحديث دكتور چونس وتناولنا موضوعات

شتى من الجو إلى الألعاب الرياضية إلى الموسيقى إلى ... إلى ... حتى إلى الحالة السياسية في مصر .

في أثناء ذلك كانت ماري قد اختفت وقتاً من الزمن ثم عادت تحمل الشاي مع ما يتبعه من الحلوى ومختلف أنواع « البسكويت » . واصلنا الحديث أثناء تناول الشاي . واشتركت فيه ماري قليلاً وكنت كلما تعمقوا في نقطة من النقاط وبدأ جهلي فيها يظهر لقلة محصولي ، حاولت أن أنقذ موقعي بتغيير مجرى الحديث إلى موضوع آخر . وعند الانتهاء وقفت مسرّحونس وتبعها زوجها ثم قالت :

« أظن أن بينك وبين مسرّحونس حديثاً خاصاً فأرجو أن تسامحنى وزوجى ان نحن تركنا كما لانهاية » .

رددت على الفور : المسألة ليست سرّاً من الأسرار ويمكننا التحدث فيها في وجودكما .

فابتسمت مسرّحونس وقالت : « نعم . ولكن في نظرى أنك ستشعر بحرية أكثر في الكلام » وتوجهت مع زوجها نحو الباب .

جلست مع « ماري » ما يقرب من نصف ساعة شرحت لها ما أريد وأى وقت أنسب لكلينا . ثم جاءت أزمة المكان وأين يتيسر لنا المقابلة دون ضياع الوقت . وأخيراً اتفقت

معه على أن تحضر الى غرفتي التي أشتغل فيها بالجامعة .
مرّ على ذلك ثلاثة أسابيع اعتدت أن أرى « ماري »
فيها مرتين في الاسبوع ولاحظت عليها بعض الملاحظات
أهمها :- أن ملابسها الخارجية (المعطف والبرنيطة) هي بعينها
لم تتغير طول المدة . وأنها شديدة المحافظة على الوقت فهي
دائماً تحضر في ميعادها كما أنها تخرج بعد انتهاء الساعة مسرعة
ولكنها في خلال مدة الدرس تشتغل بكل أمانة وإخلاص
حتى يبدو على ملاحظها في كثير من الأحيان التشوق الشديد
بأن تراني أجد الألمانية في أقصر وقت ممكن .

في خلال ذلك الوقت كنت قد أكثر من التردد على المكتبة
ومحادثة « كلير » من آن لآخر حتى أنست منها أوروبما هي
أشفقت علىّ لوحدتي فطوعت بنفسها أن تسليني وتسرى عني
وتزيل ذلك الصمت الذي كان يشملني بين أوقات العمل .

وفي أحد الأيام بينما كنت جالسا أمام « ماري » بأذنين
صاغيتين وعينين مفتوحتين لأرى حركات فم « ماري »
وكيفية اخراج الحروف ونطق الكلمات - سمعت دقة على
الباب فأجبت - اتفضل ادخل ...

- هالو « كلير » ووقفت - نطقت « كلير » إلى الورااء ونطقت
على الفور : آسفة جد الأسف لازعاجكما - لقد ظننت أنك

تشتغل وحيداً وعندى شيء أقوله لك ، قلت : « بالعكس نحن
مسروران لقدومك - أتشرف بأن أقدم لك مس ماري سُتَر
معلمتي الألمانية التي حدثتك عنها ، - والتفت نحو ماري ، -
وقلت : وهذه مس ، كبير اسمك ، صديقتي ونحن في فرقة
واحدة ... !

فبعد أن حيت إحداهما الأخرى نطقت كبير : « هناك
جماعة من الطلبة والطالبات سيذهبون إلى دربشير بعد غد
(الأحد) للمشي على الأقدام وصعود تلالها ومرتفعاتها .
يوم في الخلاء (Rambling) وأنا سأذهب معهم ، فهل
تريد أن تحضر ؟ فأجبت : نعم أكون مسرورا »

ألتفتت كبير إلى ماري وقالت : « يكون لنا عظيم الشرف
إن أنت أردت مشاركتنا مس سُتَر ... !

فردت ماري : إن من أحب الأشياء إلى السير على الأقدام
وسأبذل جهدي في مشاركتكم .

ابتسمت كبير وقالت : « أتعشم ، أن يكون « كامل » ،
طالبا مجتهدا مطيعا يحفظ كل ما يأخذه ،

فردت ماري بشعر باسم : نعم . أنه مجتهد . واعتقد أنه
سيتكلم الألمانية ويقرؤها في وقت قصير .

ضحكت لهذا الرد لأنى لغاية الآن لم أؤد واجبا

منزليا ولم أحفظ درسا . وكثيراً ما وعدتها بآداء الواجب
والمذاكرة وأخلفت ذلك .

في الخلاء

في صباح الأحد كانت « كلير وماري » وكثير من الطلبة
والطالبات على رصيف المحطة حيث شغلنا عربتين متجاورتين في
القطار الذي أقلنا إلى (بدرسبروك) ففي القطار تعارف كل بمن
جلس معه في أجزاء العربات ، وعند تحرك القطار فاض البشر
والسرور على وجوه الجميع وابتدأ الحديث عن الألعاب
الرياضية ونتائج معظمها آخر الأسبوع (فالأرسينال قد غلبت
البارحة ليفربول في لعبة كرة القدم : إصابتين لواحدة وهكذا) ثم
أعقب ذلك مختلف الأغاني واللعب على ما يحمله بعضهم أو بعضهن
من الآلات الموسيقية ، ثم إشتراك الجميع في الأناشيد الوطنية
والأغاني الجامعية .

تركنا القطار والمطر منهمر فلبس كل معطفه وحمل
على ظهره حقيبة بها ما يحتاج إليه في يومه من المأكل والمشرب .
قاد الجميع شاب في الخامسة والعشرين من عمره فتركنا تلك
البلدة الأثرية والتي تشتهر بأحد معابدها القديمة إلى الخلاء وهو

بين مرتفعات يبلغ بعضها الثلاثمائة قدم يغطي سطحها شجر وشجيرات قد نضرت غصونها وتفتحت أزهارها لقدوم الربيع وحملت أوراقاً كثيرة ذات لون أخضر زاه لم تر مثله عيناى فى جمال خضرته الذى يجذب الأنظار إليه . وأما المنخفضات فتمكسوها الشجيرات والحشائش . وهنا وهناك مجار ضيقة يلتفت النظر إليها خرير الماء فيها . وشدة انعكاس الضوء منها لصفاء مائها . وبالجملة فإن الطبيعة قد خلعت على هذا الجزء من الفضاء حلة تهيج كل عاشق ومحِب .

بعد أن قطعنا ما يقرب من ثلاثة أميال بين صعود وهبوط أنس كل إلى صديقه أو صديقاته ، وتجاوز كل منهم أطراف الحديث فيما بهم . وكان طبيعيا أن أكون ومارى فى صحبة كليهما حيث لا أعرف صديقا أو صديقة إلا إياهما .
بدأنا حديثنا عن الجو وتمنيننا لو كانت الشمس مشرقة فتكسب تلك البقعة جمالا فوق جمالها وتنعكس أشعتها على تلك الأوراق الناضرة والتلال العالية وذلك الماء الصافى النقي الذى يشق مجراه بين تلك الصخور . وابتدأت أعرض (أنكب) بالجو الانكليزى وكيف أن الشمس ربما غابت اسبوعاً تحجبها سحب كثيفة تدر علينا فى معظم الأوقات بالمطر والرذاذ . هذا عدا برودة الجو والتعرض فى كثير

من الأحيان وخصوصاً في فصل الشتاء ، وبدء الربيع برياح
شمالية قارصه ونزول البرد والثلج .

سادنا بعد ذلك صمت وسكون ! كل منا ينظر الى ما حوله
بعين الإعجاب والاعتباط حتى كاد ينسى صاحبيه وإذا « بكبير »
تلفت إلى ماري وتساءلها :

هل تعجبك هذه الديار مس سُكّر . . ؟

نعم . انى أحب المعيشة فيها .

متى حضرت ؟

في أوائل هذا العام الدراسي قبل « كامل » بثلاثة أشهر .

كم من السنين تعزمين أن تمكثي هنا . . . ؟

لست أدري لأن هذا يتوقف على الظروف .

هل سنحت لك الفرصة بالتنقل في بلادنا المختلفة في أثناء

فرصة عيد الميلاد او عيد الفصح (Easter) ؟

لا .

هل لك أصدقاء بليفربول حتى لا تشعرى بالوحدة

والمها ؟

لست أعرف أحداً خارج المنزل - وقد عرفتكم الآن .

إذن لى الشرف أن أدعوك لتناول الشاي معى غداً .

أشكرك كل الشكر مس « اسمث » ولكن ظروفى تحتم

على عدم قبول أية دعوة خارج المنزل . فإن الوقت ليس
وقتي . . ليس وقتك ؟ ، تمتد وكبير ، ثم قالت : « أرجو أن
تعفو عني إذا سألتك كيف ذلك ؟ ، فردت ماري : « طالما
أردت أن أصارح ، كامـلا ، كيف أعيش هنا لأنه ربما
لاحظ على المحافظة الشديدة على الوقت وها أنا الآن اتذنت
بك فأشرف بسردي حكايتي عليكما :—

أن أبوي لا يزالان على قيد الحياة ، وسن كل منهما حوالى
الخمسين . وأنا الابنة الكبرى لهما ولى أخوان وأخت ، أما الأب
فقد قضى أربع سنوات من حياته فى صفوف الجهاد بكل أمانة
واخلاص لرفع علم ألمانيا ورد غارات الحلفاء فى أثناء الحرب
العظمى ، وجرح ثلاث مرات كان فى أحداها على وشك الموت ،
إلا أن الله قد مد فى عمره ونجا من موت زؤام . بينما كان
الوالد يقاتل تحت علم ألمانيا كانت الأم تشتغل ليلا ونهارها
فى خدمتنا ، لا تألو جهداً فى التدبير للحصول على ما يلزمنا من
المأكل والمشرب ، ولو أننا كما تذكر ذلك جيداً فى أوائل عام ١٩١٨
بعد أن ضيق الحلفاء كل خناق ونفدت جميع موارد الغذاء ، تحتم
علينا أن نعيش ما يقرب من عام على اللفت المغلى والماء . أصبحت
الأسيرة بعد الحرب الكبرى فى حالة يرثى لها فلم نمتلك شيئاً من
حطام الدنيا سوى نصف المنزل الذى نسكنه وقليل من الأثاث

ولكن الله لطف بنا وأتاح لوالدى أن يجد وظيفة مدرس
فى مدرسة البلدة . (ثم هو لم يأل جهداً فى شغل ماله من وقت
الفراغ فى الرسم أو التصوير أو الكتابة - ولد بطبيعته ابناً للفن ،
وعبدًا للجمال ، حتى استسلمت إليه الطبيعة وفاضت روحه
بحبها ، فأسلمت إليه قيادها ، تصورها فرشته على الورق ، أو يعبر
عن جمالها قلبه ، أو تلعب بأناشيدها العذبة نغمات يانونا القديم .)
على هذا الحال كما ذكرت ترك والدى ميدان المدفع والقنبلة
والغاز الخانق الى معمعة الحياة ومعركتها الأبدية وليس له من
معين سوى والدتى التى ينم وجهها على الحزم والعزم والشجاعة
وسداد الرأى .

أما أنا فكنت بالمدرسة وكذا أخواى وأختى لاتزال
صغيرة ، وكنا لانرى من الحياة سوى جمالها . لم يظهر لنا ابوانا شيئاً
من عنائهما وما يلاقياه من صعوبات وآلام . بل بالعكس
لم يقع نظرنا عليهما الا وتلك الابتسامة فى وجوهنا مصحوبة
بنظرة أبوية ملؤها الشفقة والحب والعطف .

عندما أتممت دراستى المدرسية أردت أن أجد عملاً رفقاً
بوالدى الذى أجهدته العمل حتى بدا لى أن كل سنة تمر عليه تزيد
فى سنه أكثر من خمسة أعوام ، لم يوافق والدى على الفكرة
وألح على أن أستمّر فى دراستى الجامعية ، فبعد ثلاث سنوات

قضيتها بجامعة « همبرج » تخرجت في قسم الآداب وكان لي نصيب في أن أجد عملاً كمدرسة لمبادئ الإنجليزية والألمانية والموسيقى في إحدى المدارس الابتدائية .

وجدت أن ما أحصل عليه من المرتب يكفي لحاجتي ويزيد عنها قليلاً . وسرعان ما استكشفت أن على واجبات مقدسا أن أتمكن من أدائه إن أنا ظلمت في تلك الوظيفة ، فبدأت أفكر في الحاضر والمستقبل - هناك والد قد أضناه التعب يشغل نهاره وجزءاً كبيراً من ليله ، ومع كل ذلك فإن ما يحصل عليه من أجر قليل ما يكفي لحاجتنا - وأم لا حول لها ولا قوة غير أنها في أي لحظة من اللحظات لا تبخل براحتها أن كان في ذلك أية منفعة لأي فرد من أفراد الأسرة - وأخوان أحدهما قارب الانتهاء من دراسته بالمدرسة ، والثاني لا يزال بأولها . وأما الأخت فهي أيضاً بالمدرسة .

الكل يحتاج إلى مساعد ومعين . ليس في الأسرة فرد لا يستحق الشفقة به والرحمة ومد يد المساعدة إليه ، جلست في يوم من الأيام أسائل نفسي ، كيف مركزى في هذه الأسرة . . وبعد برهة رد صوت عميق من قلبي :
الآن وقد كبرت وترعرعت فواجبي أن أنضم إلى صف الحماة والمدافعين عن هؤلاء الذين لم يبلغوا السن القانونية بعد .

علينا أن ندافع عن هؤلاء كما تدافع الأسرد عن أشبالها .
سألت نفسي ولكن ما الحيلة . ؟

بعد قليل من الزمن تذكرت أن أحد الموظفين كان قد ذكر
لى أن مدارس البنات الثانوية فى حاجة الى مدرسات للغة
الانجليزية ، وانه ليس لى أى أمل فى الالتحاق باحداها إلا إذا
كان على بتلك اللغة ثلاثة أضعاف ماهو عليه الآن ،
بعد ذلك بدأت فى التقدير على نفسى حتى أصبح لى مايكفى
مصاريف السفر إلى هذه الديار

استقلت من وظيفتى وبعد يومين من حضورى الى
« ليفربول » أعلنت بجريدة الأكو « Echo » عن رغبى
فى الالتحاق بأسرة متوسطة الحال كخادمة ، وانتهى الحال إلى قبول
تلك الوظيفة فى منزل دكتور انجليزى وزوجته - ذلك المنزل
زارنى فيه « كامل »

وهنا قاطعها بالسؤال : ولكن مارى كيف يمكنك أن
تقومى بواجب الخدمة وفى الوقت نفسه تحضرين جميع محاضرات
اللغة الانجليزية وآدابها بالجامعة ؟ فردت « نعم يمكننى ذلك بكل
سهولة ، فلقد شرحت حكايتى للدكتور ومسر جونس حتى أتى
بدل أن آخذ يوما كاملا ونصف يوم فى الأسبوع « الأجازة
المقررة لخادمت المنازل ، أصبحت الآن آخذ هذا القدر

من الوقت ساعات متقطعة أقضيها في حضور ماذكرت من المحاضرات وفي اعطائك الدروس ، أما وقت المذاكرة فان الكتاب لا يكاد يفارقني في المطبخ أو في غرفة النوم ، وبطبيعة الحال لم أتذكر أنني نمت أكثر من ست ساعات في الليلة منذ وطئت قدمي هنا . . تنهدت عميقاً ثم قاطعتها بقولي :

يخيل إليّ يا ماري أن حكايتك حلم من الأحلام فأني لا أكاد أصدق أن فتاة في سنك تفكر في مخاطرات كالتى ذكرت في سبيل تأدية الواجب .

هنا تحركت رأس « كلير » نحو كتفها الأيمن ونظرت إلى نظرة حادة ثم قالت : « لم يدهشك أن فتاة في سن « ماري » تلبى نداء الواجب عليها وتضحى براحتها وسعادتها في أدائه ؟ . .

كان ذلك سهماً صائباً فلقد شعرت بحرج شديد وخجل عميق ، ثم انفتحت شفتاي ونطقت بصوت منخفض « لاشيء . . سوى . . سوى . . » وهنا انعقد لساني . . ولا بد أن لاحظت على « كلير » حرج الموقف فنطقت على الفور « سوى أنك لم تتعود ذلك في مصر - أليس هذا صحيحاً . . ؟

نعم - « هي الحقيقة المرة »

ولو أنها الحقيقة المرة إلا أن الذنب فيها ليس على المرأة فان طمع الرجل وجشعه سلبها حقها الاجتماعي وشعورها

بالاستقلال ووجوب التفكير لنفسها واستخدام ما وهبها الطبيعة من قوة العقل والتدبير . . . » وهذا قاطعتها ماري ثم لفقت نظرنا إلى وجوب الحذر في صعود أحد التلال مع الاسراع حتى تتمكن من اللحاق بباقي الجماعة .

مضت فترة من الزمن في صمت وهدوء لم أسمع فيها سوى ازدياد حركة التنفس (النهجان) حتى وصلنا إلى قمة التل وقد أعيانا التعب وأجهدنا المسير . وهناك شاركنا باقي الجماعة وقد افترشوا الارض برهة من الزمن للاستراحة واطفاء ظمئهم بتناول الشاي الساخن الذي يحملونه معهم في أقداح معزولة (ثرمو Thermo) وأكل البرتقال وبعض السندوتش وتجاذب أطراف الحديث عن جمال تلك البقعة ؛ خصوصا في تلك الآونة التي فيها تبددت السحب ، وظهرت الشمس فأضاءت تلك المرتفعات وما يكسوها من شجر وشجيرات ، وانعكس ظلها على ماحولها من خضرة ، فظهر ذلك البساط الأخضر في كثير من الألوان بين الخضرة الفاتحة الناصعة - والقائمة .

قام دليل الجماعة وأشار علينا باستئناف المسير وذكر لنا أن الاستراحة الثانية ستكون بعد خمسة أميال من هذه البقعة ، فنظرت إليه في دهشة ثم سألت نفسي : « ولم جئت إلى هنا ؟ » أنى لم أعود السير كثيراً ولقد بدأ التعب يضني - ولكن ما الحيلة ؟ لقد قبلت الدعوة . ليس هناك سوى الصبر والجلد .

المرأة

نهضت من مكاني وشاركت « كلير » و « ماري » واستأنفنا
المسير في هدوء .

بعد أن انفرط حبل الجماعة وأنس كل برفقائه ورفيقاته
واستأنفوا أحاديثهم التي قطعت في فترة الاستراحة : بعد السير
برهة نظرت إلى « كلير » وتحدثت بصوت موسيقى النبرات واضح
: « أتسمح بأن تذكر لي شيئاً عن حالة المرأة في مصر فأني
منذ نشأتي أخذت على عاتقي وجوب مساعدة جنسي ورفع
مستواهن إلى حد المساواة مع الرجل وأن يخلقن لأنفسهن
شخصية مستقلة تصطبغ بما وهبن من القوى العقلية وحب
الفن والجمال » .

حرت في الرد عليها ثم قلت

ليس من شيء أقوله لك سوى أنه في معظم الأحيان لم تتغير
حالة المرأة عما كانت عليه في بدء التاريخ . ووظيفتها هي أشباع
شهوة الرجل النفسية وحمل الأطفال والخدمة في المنزل
أو في الحقل - لم يكتف بذلك الرجل في مصر أو في الشرق عامة
وخاصة في العالم الاسلامي ، بل عدها كسلعة تباع وتشترى وأن

هو رغب في تركها نطق اسائه بكلمة واحدة وهي ، الطلاق ،
وتخلص منها أسرع من تخلصه من حذائه القديم ، دون أن
يعير نفسه لحظة واحدة للتفكير في مركزها ، وأنها هي في الحقيقة
نصف الانسانية ، وأن لها من الحقوق مثل ماله قاطعتني
مارى بقولها : ، ربما كان عذر معظم الرجال الذين يعاملون
المرأة بمثل ما ذكرت هو الجهل ولكن كيف حال رجال الدين
ومركزهم أزاء ذلك ؟ ،

فرددت عليها : رجال الدين - كما أعرف - يعلمون المرأة أن
لا فرق بين المرأة وبين الرجل في الحقوق والواجبات أمام الله فأن
تحلوا بالفضيلة والعمل الصالح كوقفوا ، وأن أذنبوا عوقبوا -
ولكن في الحياة الاجتماعية والقوانين الانسانية أنكروا
عليها تلك المساواة وصارت تعامل كسلعة حتى أن بعضهم
يشك بل يجادل بكل ما أوتي من قوة عما إذا كانت للمرأة
روح حقيقية لتستخدم مالهها من المواهب :

نطقت ، كبير ، ، وكيف تنتظر من الرجل الذي سلب المرأة
حقها في جميع عصور التاريخ سواء أكان هذا الرجل ينتمى إلى
الهيئة الدينية أو الهيئة الحاكمة : أكثر من هذه الأنانية
وهذا الطغيان ،

رددت عليها بصوت منخفض : « أخاف ألا أعرف شيئاً عن تاريخ علاقة الرجل بالمرأة » .

ابتسمت ماري وقالت : « لقد قرأت عن ذلك الشيء القليل أنا الأخرى - ولكن يظهر أن «كثير» تعرف عنه الشيء الكثير ؛ وأعتقد أن في قدرتها تنوير الطريق لنا قبل أن نصل إلى حكم في هذا الموضوع الحيوى الهام - فهو في الحقيقة عماد الانسانية وحجرها الأول » .

نظرت إلينا «كثير» وقالت « نعم لقد قرأت عنه وسأحاول أن أسرد عليكما ما يزال يعلق بذاكرتي ولكن أسألكما الصفح والعفو إن أنا أخطأت في ذكر حادثة من الحوادث فإن ذاكرتي ليست قوية كما كنت أريدها » .

فضحكنا نحن الثلاثة ثم ردت عليها ماري « ليس لك أن تخافى فأتنا نعرف عن هذا الموضوع الشيء القليل وفوق ذلك ليس أمامنا مراجع التاريخ ومجلداته » .

« إذن لنبدأ الآن - هل تعرفان ما حصل لآدم وحواء ؟ » فأجبتهما على الفور : « هذه الحكاية أعرفها جيداً فلقد سمعتها في « الكتاب » وهي أن حواء دفعت آدم الى الاقتراب من شجرة المعرفة والاقتراف من ثمرها - ذلك هو السبب في طرد الجميع من الجنة وكنت أسمع كثيراً من التعليق على تلك الحكاية -

أن المرأة مصدر السوء لأن حواء بعملها هذا قد حرمت
الانسانية من التمتع بالجنة ونعيمها .

ردت على « كبير » بابتسامة عذبة « حواء لم تكن مصدراً
للسوء وذلك دليل على أن التاريخ قد بدأ بنفوذ المرأة وقوة
تفكيرها - آدم نفذ ما أمر به : قضية مسلماً بها - ولم يجهد نفسه
في مناقشة تلك الأوامر - ولكن حواء بقوة عقلها جلست
إلى ركن من أركان الجنة تفكر في سبب المنع من الاقتراب
من الشجرة - وأخيراً فإن قوة عزيمتها وحب المخاطرة فيها جعلها
توحي إلى آدم بالاقتراب من الشجرة .

ظهر بعد ذلك الانسان الأول يغدو ويروح على الأرض .
ذلك الانسان لم يصلنا من تاريخه إلا الشيء القليل جداً في عاداته
(Antiquities) . شاركت المرأة الرجل على قاعدة المساواة من
حيث القوة العقلية والجسمانية ، فعاش الجميع بين الحيوان
المفترس يطارده ، وأصبح للمرأة كما للرجل صفات المدافعة عن
النفس ، ووقاية النسل ، والصبر والجلد على صعوبات الحياة .

ظهر بعد ذلك طمع الرجل وحبه لنفسه الذي دفع به إلى
توزيع العمل - فبينما هو يمارس الحروب التي ولدت فيه الشجاعة
وقوة الجسم والبدن كان قد سلب المرأة حقها وأصبحت له
فريسة في تلك الناحية .

ذلك لم يضعف من قوى المرأة العقلية ؛ ففي عهد الاغريق كان كثير من النساء رفيقات وصديقات وفي كثير من الاحيان الساعد الايمن للفلاسفة وأهل العلم منهم حتى أن بعضهن قد أنرن الطريق لهؤلاء الفلاسفة فصرن وحي ضمائرهم والنور الذى نهتدى به حكمتهم .

هؤلاء النسوة فى كثير من الاحايين تعدين حدود الوظيفة التى اختارها لهن الرجل على ضيقها « وهى الزوجية » إلى مثل أو أكثر مما اتصف به الرجل من عظمة النفس وحب الفضيلة والانسانية فى (Pythias & Sibyls) و (Vestals & Valas) مثل ينطق بما وصلت اليه المرأة من مكانة ورفعة وما تحلت به فى تلك الأيام .

تاريخ العصور الوسطى يشهد أن ماتحلت به المرأة من الصفات لا يقل عن مثل ما اتصف به الرجل من التدين وطهارة النفس وقوة القلب . وفى أيام عصر التجديد الأول (Renaissance) ظهر عدد ليس بالقليل من النساء شاركن الرجال فى نشر الآداب (Classic Culture) وأحياء العلوم وأخذن قسطن من الحرف والعلوم والفنون وتجولن فى ميادين السياسة والدين وكن عضداً للرجال الذين دافعوا عن الانسانية بوجوب التطور والارتقاء فى طريق الاصلاح .

شعرت المرأة في ذلك العصر بوجود مساواتها بالرجل في ميدان الحياة ، ولو أن تلك الروح لم تخمد مطامع الرجال وحبهم لأنفسهم والعمل على قتلها وهي لا تزال في مهدها - لما كان هناك اليوم أو قبل اليوم بقرون عدة أى فرق بين المرأة والرجل من حيث تنازع القوة والمساواة .

وفي أيام الـ (Counter reformation) والحروب الدينية والأرثوذكسية الجديدة اضمحل مركز المرأة وانحصر واجبها « في أنها كزوجة وزوجة فقط » فوظيفتها لم تتعد الزوجية وانتاج أكبر عدد من الاطفال للرجل الذى اختارها ، وأصبح الرجل السيد والحاكم المطلق فى المنزل : وبذلك ظن أن منزلته أقرب إلى الله من زوجته كما هى الحال الآن فى معظم بلاد الشرق .

عقب ذلك ظهرت تلك القاعدة الأساسية للبروتستانتية وهى قاعدة « الاستقلال الشخصى » ، وأن لكل إنسان الحق المطلق فى التعبير عما يعتقد أنه الحق .

كانت حرية التفكير فى ذلك العصر هى النواة الأولى للحضارة الغربية وأساس نهضتها ومنبع ثروتها وبذلك أصبحت أداة للتقدم والنجاح وانتشار العلم والعرفان بخلاف ما أخذت به الحضارة الشرقية التى سبقتها من الجمود وضغط حرية الرأى وعدم الاستقلال الفردى .

ظهر في إنجلترا في ذلك العصر « ملتون » ، الذي كتب عن حق الطلاق ، وديفو Defoe ، الذي أيد وجوب تعليم المرأة وتمارين قواها العقلية وتغذية نفسها بالعلم والعرفان - عقب ذلك (Comenius) في ألمانيا و (Fenelon) في فرنسا اللذان ألحا في وجوب تعليم المرأة .

ففي فرنسا في أوائل أيام النور (Age of Enlightenment) كانت الصالونات التي أسستها جمعيات النساء هي التي أثرت في الحياة الأوروبية في ذلك العصر - وظهر نفوذ المرأة وقوة روحها في السياسة والفلسفة والعلوم . ولقد حل بعضهن في المركز الثاني للفلاسفة ورجال الدين والسياسة وأصبح لهن رأى جلى واضح حتى أخذن قسطن في أثناء الثورة الفرنسية وكانت نتيجة هذه اليقظة وحياة شعورهن انشاء (Women Lyceum) في باريس عام ١٧٨٦ على ما أذكر . والذي أخرج كثيرا من الطالبات اللاتي عضدن الثورة .

خلف ذلك عصر التجديد الثاني (Revival of feeling Renaissance^٢) الذي استهل بمختلف الكتابات الدينية ثم ألح في وجوب إطلاق حرية الرأى والتعبير عن الشعور وكان من ذلك ما كتبه « روسو » عن الدين والطبيعة والحب والأم - وشاركه في ذلك كثير من أدباء الانجليز والألمان حتى وصلت

الحركة إلى منتهائها في كتابات شاعر الألمان الخالد « جيتا » وكانت نتيجة ذلك الأحياء للشعور كثرة عدد الكتاب ومحبي الفن ، وأصحاب الحرف من النساء ، وأصبح لهن شخصية مستقلة يفكرن لأنفسهن فيما هو أصح لهن وللحياة الاجتماعية حولهن . استمرت تلك الحركة على بطئها وما لاقته من روح الرجعية في أثناء القرن التاسع عشر ، ولكن كان نصيبها الفوز والنصر في بدء القرن العشرين ، وأصبح للمرأة في معظم ممالك الغرب حق المساواة مع الرجل في المنزل والأسرة والمجتمع ، وجلست مع الرجل كتفا إلى كتف في دور العلم والجامعات ، وأصبح لها حق منافسته في الحرف التي احتكرها لنفسه زمنا طويلا وفي بعض الأحيان بزته وبدأت مواهبها وظهر ما أعطيت من قوة التفكير وال....

وهنا سمعنا صيحة عالية تبعها هرج ومرج فأمسكت « كبير » عن الكلام واتجهت نظراتنا نحو مصدر الصوت وإذا بالجماعة وبيننا وبينهم ما يقرب من نصف كيلو متر قد تزاحم بعضهم مع بعض . فاسرعنا في السير وعند اقترابنا منهم وجدنا إحدى الفتيات قد زلت قدمها في أثناء صعودها فوقعت من منحدر يبلغ العشرين قدما ولكن من حسن الحظ لم يصيبها عطب أو كسر سوى أنه قد حصل خلع في قدمها اليسرى - ساعدها أحد

الشبان الأقوياء على المسير واستأنف الجميع السير وكانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر وقد أضنانا التعب فلزم معظمنا الهدوء والسكينة .

بعد حوالى نصف ساعة من تلك البقعة وصلنا إلى فندق صغير (Inn) حيث جلسنا جميعا للاستراحة وتناولنا بعض الطعام وشربنا الشاي ، وبعد أن استرحنا مدة قصيرة تركنا الفندق للسير مايقرب من أربعة أميال إلى المحطة التى وصلنا إليها حوالى السادسة مساء . بعد أن أعيانى التعب وكدت أن أقع على الأرض مغشيا علىّ فى حين أن الشبان والفتيات يظهر على وجوههم الانشراح ولم تبد على أحدهم أو إحداهن أية علامة من علامات التعب .

بطاقه

وصلت إلى المنزل حوالى التاسعة مساء وكاد التعب يرضيني فارتميت على مقعد مريح بجانب النار فى حجرة الجلوس ، ثم أخذ نظرى يتنقل من صورة إلى أخرى من الصور المعلقة على جدران الحجرة ومعظمها مناظر طبيعية أو صور من صور الجمال أوحاها الخيال إلى محبى الفن فتحركت أيديهم وبها الريش الدقيقة لتصوير هذا الوحي وأظهاره فى أجمل ثوب ، بعد أن أشبعت نفسى

من النظر إلى تلك الصور التي طالما رأيت فيها شيئاً جديداً يأخذ بلي ، ويتهيج له قلبي ، تقلب نظري بين تلك التحف القديمة التي تحتفظ بها سيدة المنزل والتي بعضها - كما قالت ذات مرة - لانزال في الأسرة منذ ما يقرب من القرن والنصف يرثها الابن عن والده والبنت عن أمها وهكذا...! وبينما أنا غارق في التفكير أحاول مقارنة القديم الذي يتمثل في تلك المجموعة الصغيرة من التحف من دقة الصناعة ، ومهارة الصانع ، وصبره وجلده ، مع ما حولي من المصنوعات الحديثة التي هي وليدة الآلة (الحديد والنار) وعنوان السرعة ووفرة الاخراج (Mass Production) وفي بعض الأحيان لم تلمسها يد بشر منذ أن وضعت قطعة الخام في الآلة إلى أن تظهر تحفة في ثوبها وشكلها - لقد تغيرت الأيام ، وتحولت الجهود ، فبعد أن كان الانسان يجلس الساعات الطوال بل الأيام والشهور في كد وجد لصنع قطعة واحدة ، حلت محله آلات البخار والكهرباء لاخراج أمثال تلك القطعة وآلاف منها في زمن يعد بالدقيقة لا بالساعة واليوم . غرقت في بحر تلك الأفكار وإذا بالخادم تدق الباب فانفتحت شفتاي وبصوت منخفض يدل على التعب والأعياء قلت « اتفضلني أدخلي » فقالت « ألك في شيء من الطعام والشراب لاستحضره اليك سيدي ؟ » نعم - أني أشعر

بظماً ، فإن أنت تفضلت فاسمحي بفنجال من الشاي مع قليل
من السندوتش والحلوى . غابت الخادم برهة من الزمن ثم
أحضرت إلى ما طلبت ، وبعد أن وضعت كل شيء في محله
على المائدة ، التفتت إلى وامتدت يدها اليمنى نحوى بطاقة صغيرة
ثم قالت : هذه البطاقة لك « سيدى » تركتها فتاة كانت قد حضرت
لزيارتك بعد ظهر هذا اليوم حوالى الساعة السادسة مساءً ؛ هنا
نسيت كل شيء من تعب واجهاد وامتدت يدي بلهفة نحو
الخادم وأخذت منها البطاقة ونطقت على الفور فى رنة ووضوح :
« أشكرك ... أنى لا أريد شيئاً أكثر من هذا » وتسلمت
الخادم وأغلقت باب الحجرة . وراءها على الفور كانت يدى على
البطاقة ففتحتها وإذا بها تحوى بطاقة للزيارة على إحدى
وجهيها اسم صاحبها « كاتلين رتلف » وعلى الوجه الثانى
« حضرت لزيارتك فلم يسعدنى الحظ بمقابلتك أرجو أن
أراك فى وقت آخر » . كاتلين

مرت على فترة من الزمن هاجت فيها عواطفى ، وسبح
فكرى فى عالم الخيال ، ثم استيقظت من ذلك وأنا أقول فى
نفسى كاتلين ... كاتلين ... لم أكداً صدق أنها حضرت
لزيارتى .. نظرت إلى البطاقة مرة ثانية وأنا فى شك وريب
وإذا بيدى على الجرس فضغطته فحضرت الخادم على الفور

ثم قالت :

« نعم سيدى ؟ » فسألنها : « هل رأيت تلك الفتاة التى حضرت هنا لزيارتى . . ؟ » « نعم سيدى - لقد فتحت لها الباب وطلبت منها أن تتفضل بالدخول فى هذه الحجرة لتتمكن من كتابة بطاقتها ، - « أذن هل لك بوصفها ؟ » :

« نعم .. سأحاول ذلك . هى فتاة معتدلة القوام ، حسنة الطلعة ، ذات عينين ساحرتين ، وفم يكاد يتناثر منه اللؤلؤ ، تغطى رأسها خصائل من الشعر الذهبى ، وعندما أمسكت قلبها للكتابة لاح لى أن أصابعها الطويلة الرشيقة كأنها قطع من العاج المصقول ، وبالجملة فأنها فتاة رشيقة جذابة تتكلم بكل هدوء ووضوح كالآنسة المثقفة المهذبة .

فقلت لها بصوت خافت : أشكرك . - فخرجت

صرت بعد ذلك أتجول فى الغرفة من جانب إلى جانب ، ومن ركن إلى ركن ، حتى كدت أنسى الطعام على المائدة وأنا أقول فى نفسى « إذن هى كاتلين » ما أسعدنى هذه الليلة . . . !
لقد تشوقت إلى تلك اللحظة منذ أن وقع نظرى عليها عند ما قدّمت إليها وكان ذلك منذ خمسة عشر يوما فى منزل أحد أصدقاء الأسرة التى أسكن معها .

جلست على المائدة وأمسكت يدي واحدة من السندوتش

والنهمتها التهاما دون نظر أو تفكير . عقب ذلك شربت قدحين
من الشاي الساخن فشعرت بدفء . بعد أن أشبعت نفسي
من الأكل والشراب انحنيت برأسي على المائدة حتى استراحت
على كفي ؛ شمل جميع أعضاء جسمي سكون تام ، ثم سبحت في
عالم الخيال عندما زارني طيف كاتلين ، ذات القوام البديع ،
والوجه الجذاب ، وتلك الابتسامة العذبة التي سحرت نفسي
وجعلتني أسيراً لها في اللحظة التي عرفتها فيها ، فكنت أردد في
نفسى ! الحب لأول وهلة !! هذا قد قرأته وسمعت
عنه الشيء الكثير ورأيت على اللوحة الفضية والخيالة المتكلمة .
ولكن كنت دائماً أعتقد أن لا وجود له وأنه لاشيء
سوى مخيلة المؤلف ، وتصوير الكاتب ، الآن وأنا على أبوابه
أو في الغالب قد اشتبكت في حباله فيجب عليّ أن أومن به
وأصدق الحب لأول وهلة !

في تلك الليلة الأولى التي عرفت فيها كاتلين ، شعرت بسهمه
القاتل قد صوب إلى قلبي فأحدث به جرحاً ربما يعي تضميده
كبار الأطباء ومشاهير علماء النفس والسيكولوجيا ولكن
نظرة واحدة إلى كاتلين تكفي لأن تنزل عليه برداً وسلاماً ،
وبلسماً شافياً . لقد أفرغت جميع حيلي في الاقتراب منها في تلك
الليلة الأولى والتحدث إليها ولم كان فرحى كثيراً ، وسرورى

عظيما ، عندما قبلت دعوتي إياها إلى تناول العشاء في المدينة
وتبع ذلك مصاحبتي إلى « تياترو الامبراطورية » لحضور
رواية « أغنية الصحراء » (Desert Song) ولا تزال ذاكرتي
تردد حديثها العذب في ذلك الصوت الموسيقي البديع ، وبينما أنا
ساجح في عالم الخيال وإذا بدقة على الباب أيقظتني ، وقلت :
« تفضل أدخل » .

« هل متعت نفسك هذا اليوم ؟ » - فاهت بذلك سيدة المنزل
بصوت هادئ .

« نعم . متعت نفسي كثيراً ، أشكرك . »

« هل تريد شيئاً هذه الليلة لأكلف الخادم استحضاره ؟ »
« لا أظن ذلك » .

« أذن أقول لك « ليلة سعيدة » وأرجو أن تنام هذه الليلة
نوماً هادئاً . »

تركت المائدة . واقتربت من السيدة بخطوات متثاقلة
وسالتها : من فضلك كم الساعة « مسز كورت » ؟
« الحادية عشرة ؟ »

« سأذهب أنا الآخر توا إلى الفراش فأني متعب . »

« أتمنى لك ليلة سعيدة هادئة ونوماً عميقاً . »

خرجت « مسز كورت » وبعدها برهة قصيرة كنت
بغرفة نومي .

لعدم تعودى مسير تلك المسافات الطويلة كالتى قطعت
فى ذلك اليوم ، فضلا عن صعود التلال وهبوطها ، تحت سماء
لم تبخل علينا بالمطر والرذاذ فى معظم ساعات النهار ؛ عندما
استلقيت على الفراش شعرت بتعب كثير وأعياء حال بيني وبين
النوم فلم يكن هناك بد من أن تستعرض ذاكرتى حوادث
اليوم . وعندما وصلت إلى ما تحدثت به كليز عن مركز المرأة فى
ماضيها وحاضرها ، رنت فى أذنى تلك الجمل البليغة بحق التى
فاهت بها : « طمع الرجل وجهه لنفسه دفع به إلى « تجزئة العمل » ،
« سلب المرأة حقها وأصبحت له فريسة »

أختار أن يكون « واجبها كزوجة وزوجة فقط لتحمل
أكبر عدد من الأطفال » ، إلى آخر ما ذكرت كليز

تحركت من جنب إلى جنب ، وأنا أفكر فى المرأة المصرية
خاصة والشرقية عامة ، ثم عجبت كل العجب من أنها لاتزال
فى حالتها الراهنة التى ورثتها عن العصور الوسطى ، لم تر تقدما
أو تطورا . وأكثر عجبى : كيف أن علماء التربية وفلاسفة
الشرق وزعماءه والمشتغلين منهم بالسياسة وهم كثيرون قد
أهملوا نصف الإنسانية وعماد الأمم ، على أن يختلف
الحكومات قد أرسلت كثيرا من الطلبة لارتشاف علوم الغرب
ومن بين هؤلاء فريق من الطلبة لدراسة « فن المعمار » ،

أهم قد نسوا - أو عرفوا فتجاهلوا : أن المرأة هي « المهندس المعماري للأمة » وعلى هذا يجب البدء في تعليمها وتقويمها فتأخذ حقها في الحياة كاملا ، وتؤدي مايجب عليها لنفسها ولغيرها وهي في ذلك طائعة مختارة . ربما كان ذلك « هو طمع الرجل وحبه نفسه » وكيف ينتظر من حكومات أو برلمانات أو زعماء من الرجال ، أن ينصفوا المرأة فيعطوها حقها ، ويردوا إليها ماسلبتها الأيام حتى تشعر بشخصية مستقلة تفكر فيما يصلح لها ولجنسها ، وفي الوقت عينه تقابل الجنس الآخر على وجه الحرية والمساواة ؟ في مثل تلك الظروف تتمكن المرأة أن تقف بجانب الرجل لبناء الحياة السياسية والاجتماعية للأمة والتي أهم أغراضها : أن يكون محور المجتمع مع مايربطه من القوانين سواء أكانت سياسية أو اجتماعية هو سعادة الناشئ الصغير وتقدمه وتوفير أسباب الراحة للأجيال القادمة ؛ كأن يولد الطفل من أبوين صحيحي الجسم والعقل ، صالحين للأبوة ؛ وأن يكون لدهما من الثروة مايتيسر لهما معه تربية طفلها على أساس قويم بتغذيته بما في هذه الحياة من سعادة وقوة وجمال ؛ ويجب أن تكون الزوجة رفيقة زوجها لأمة له ، سيدة في بيتها ، مربية صالحة لأطفالها ، تقابل الرجل على أساس حرية الرأي والتفكير الشخصي ، لها أن تتصرف بما تعتقد أنه الصواب

فى تدبير شؤونها : أن يصرف الرجل ماله من وقت الفراغ فى مشاركة الزوجة فى تعليم الأطفال وتقويمهم ، وأن يتمتع نفسه مع زوجته وأطفاله بما فى الحياة الداخلية لمنزله والخارجة عنه من فرح وسعادة .

وأن يكون لغير الزوجة من النساء حق منافسة الرجل فى جميع الأعمال الحرة ومناصب الدولة . حتى إن هى لم تأخذ نصيبها من الحياة كزوجة وأم ، وجدت سبيلا لكسب عيشها وسد ما تحتاج إليه فى حياتها بدل أن تكون عالة على أهلها ومجتمعها .

وبالجملة فإن مجتمعاً مثل الذى أحلم به فى تلك اليقظة ستضطر الظروف فيه ووجوب التوازن بين الجنسين إلى أن تنال المرأة جميع حقوقها فى مختلف وجوده الحياة سواء أكانت اجتماعية أو سياسية .

وهنا شعرت أن التفكير قد أجهدنى فامتدت يدي إلى المصباح الكهربائى وأوقدته ونظرت إلى الساعة فإذا هى قد قاربت الحادية صباحاً ، أطفأت المصباح وأمسكت عن التفكير فى محاولة النوم .

دعوة

مضى على ذلك أسابيع قلائل كنت أرى ماري ساعيتين في الأسبوع أتلقى في أثناءها الدرس الألماني، وكثير في كثير من الأحيان بالمكتبة مكتبة على درسها فأنت العام الدراسي قد قارب الانتهاء وأصبح شبح الامتحان على الأبواب . وفي الوقت نفسه أكرت من التردد علي زيارة « كاتلين » وسؤالها مصاحبتي إلى دور التمثيل ، أو الخيالة ، أو المشي على الأقدام في الهواء الطلق ، حتى صرت لا يهنا لي عيش أو بهـداً لي خاطر إلا في الساعة التي أكون بجانبها حتى في تلك الأيام الأخيرة التي كنت فيها أحوج ماأكون إلى ساعات للقراءة والحفظ .

على هذا الحال أصبحت كاتلين جزءاً من نفسي ، فأن شبح قوامها المعتدل قد انطبع على ذاكرتي ، ونظرات عينيها قد ملكت جميع حواسي ، فصرت أرى الحياة حلوة بين شفيتها الرقيقتين اللتين طالما انفرجتا عن ابتسامة ملؤها العطف والحب .

لقد تركت كاتلين المدرسة منذ عامين تقريبا بعد أن جازت امتحان شهادة الدراسة الثانوية « Matriculation » وهي الآن تشتغل « كبائعة » في أحد محال المجوهرات وقد اختارها لحسن هندامها ، وجمال عنقها ، وصفاء بشرتها ، حتى إذا مادعت

الحال كما هي العادة في تلك الحال إلى أن تلبس فتعرض
المجوهرات والحلى على جماعات الشارين والشاريات ؛ أ كسبت هذه
اللالى بهجة وزينة بجمالها ، وبهذا تغرى الناس بالشراء . أما وقت
فراغها فقد قسمته بين لعب التنس والجولف ثم قراءة (الأدب
الخفيف) من مختلف الروايات والقصص لكتاب العصر الحاضر
أمثال « جلتويرثى ، وبريستلى ، وبذيت ، وولاس ، وولز
وغيرهم ... »

على هذا لم تكن « كاتلين » بالمحدثة الذرية ، ولم يتسع نطاق
تفكيرها حتى تجلس إلى فتطرق باب الفلسفة والأدب والدين
والعلم كما فى مقدرة كليز أو مارى ، ولكن يجب أن أعترف
بين هذه السطور أنه كان لديها من المعلومات العامة ما يكفى
ويزيد فى بعض الأحيان عما تحتاج إليه فى الحياة العملية .

وهناك صفة أخرى من الصفات التى اتصفت بها كاتلين
وهى قلة الكلام ، فلقد شاهدت عليها أنها مهما طال جلوسها
لا تفوه بشيء إلا إذا سئلت ، وإن هى سئلت أجابت بصوت
موسيقى عذب هادىء بكل اختصار ووضوح ..

استمرت الحال بيننا نحن الأربعة على ما ذكرت من
العلاقات إلى ما بعد الامتحان .

وفى صباح يوم ٢٢ يونيه وصلتني بطاقة من كليز تدعوني

فيها لمنزلهم مساء يوم ٢٧ لتناول طعام العشاء وسيتبع ذلك قليل من الألعاب الداخلية والرقص . تقول كلير في دعوتها أن ذلك بمناسبة انتهاء العام الدراسي وإيجاد الفرصة لكل منا ليعرف ما اعتزم عليه الآخرون في كيفية قضاء أجازة الصيف . لقد تصادف أن وعدت كاتلين بمصاحبتهما إلى إحدى صالات الرقص في ذلك اليوم ، ولكن أمكنني الاعتذار بعد أن صارحتنا بالسبب فقبلته .

وفي اليوم والساعة المحددين كنت على باب منزل كلير ، فاستقبلتني بوجه باسم ، وأشارت إلى فتبعتهما إلى حجرة الاستقبال وقدمتني إلى من بها ، وكانوا أربعة من أصحابها ، أعرف من بينهم شابا وفتاة من الجامعة .

لم أمكث بالغرفة أكثر من ربع ساعة حتى وصلت « ماري » وفي صحبتها شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، واسع الصدر ولكنه ليس بضخم الجسم وهو في تناسب أعضائه كثير الشبه بتماثيل الأغريق لآلهة الشجاعة والحرب ، ذو عيني زرقاوين ووجه مستطيل تزينه ملامح متناسبة دقيقة . سمعت ماري تقدمه إلى كلير باسم « مستر كارل جونس » وأضافت إلى ذلك « ابن أخ دكتور جونس الذي حدثتك عنه كما تذكرين عندما قابلتك في المرة الأخيرة »

اقتربت منا كلير تصحبها ماري وخلفها كارل فقدمتها
إلى الحاضرات والحاضرين .

بعد برهة من الزمن قدم إلى كل منا قدح من « الكوكتيل
الجيد » وتناولنا الحديث عن الجو وبعض الألعاب الرياضية .
ثم دخلت إحدى الخادومات بالمنزل وأعلنت أن العشاء أعد .
فقادتنا كلير إلى غرفة الأكل المنسقة أحسن تنسيق ، وأهم مألفت
نظري عند دخولها هو تناسق الألوان بعضها مع بعض ، وثلاثة
مناظر طبيعية بالزيت علقت على جدرانها . وعلى مائدة الأكل
المغطاة بثوب من الكتان الايرلندي الناصع البيضاء ثلاثة
أحواض من الصيني تملؤها أزهار من مختلف الألوان ، وتعطر
برائحتها الحجرة .

كانت الأزهار بحق هي موضع أعجاب الجميع فثلاثة
أو أربعة منا نطقوا في صوت واحد « ما أجمل هذه الأزهار
يا كلير وما أطيب رائحتها »

اقتربنا من المائدة وجلس كل منا على الكرسي المعد له فكان
على يميني فتاة اسمها « هيلدا لويد » وعلى يساري « ماري »
ابتدأنا العشاء بشرب « نخب النجاح لمن جلسوا منا في
الامتحان » وفي أثنائه بدأت « هيلدا » الحديث معي :
« هل تحب هذه البلاد ؟ »

« نعم : لا بأس بها . . . »
« كم من الزمن مضيت هنا ؟ »
« ما يقرب من ثمانية شهور . »
« ثمانية شهور فقط : أنى أعجب لذلك فأنتك تتكلم الانجليزية جيداً . هل تعلمها فى مصر ؟ »
« نعم : لقد بدأنا منذ إثنى عشر عاماً . »
« هل لك فى الألعاب الرياضية ؟ »
« قليل جداً من التنس والعموم . »
« ألم تحاول أن تلعب « كريكيت » أو « جولف » أو « هوكى » ؟ »
« آسف جد الأسف - لم أحاول ذلك ، »

على هذا النمط ، استمرت « هيلدا » فى حديثها معى عن الألعاب الرياضية والجو ثم الموسيقى والتمثيل وأشهر الكتب التى ظهرت حديثاً « Best Sellers » وغير ذلك ، وفى كثير من الأحيان ظهر جهلى فى معظم النواحي وخصوصاً الموسيقى والفن « وأشهر الكتب التى ظهرت حديثاً ، ولكن ذكاه هيلدا وقوة إدراكها جعلها عندما ترانى وتلاحظ على الخجل تردف سؤاها بنكتة أو تسحبه بطريقة ماهرة حتى لا أشعر بالخرج أو الضيق فى مثل ذلك الظرف . . . وهو وقت العشاء .

من آن إلى آخر ألقى نظرة على الباقيين فاشهد أن كلا

يتحدث إلى رفيقه أو رفيقته في صوت منخفض هادئ لا يكاد يسمع - ألا أن نظرات الفتيات الأربع تكاد تكون مقيدة « بكارل ، فقلت في نفسي :

لِمَ لا . . ؟ طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوى الجسم ، هذا من تحلم به المرأة زوجاً ورفيقاً وفوق ذلك فإنه ليس لي لوم على أحدها « إذ أن القوى في العادة يجذب الضعيف إليه ، جلسنا طول مدة العشاء في روح ملؤها الغبطة والسرور ولقد طرقتنا كثيراً من الموضوعات العامة وأهمها الألعاب الرياضية والموسيقى والكتب ؛ وعند الانتهاء طلبت منا « كلير ، بابتسامة عذبة أن نتبعها إلى حجرة الجلوس . فعلنا ذلك وجلسنا جميعاً في دائرة واحدة كأسرة واحدة . وبعد قليل من الزمن حضرت الخادم القهوة ، وفي أثناء شربها فتحت « كلير ، باب الحديث عن كيفية تمضية أجازة الصيف ؟

أما هي فقالت أنها تفكر في تعلم الطيران ولقد أصبحت شغوفة به لدرجة أنها متشوقة للبدء بأسرع ما تستطيع . وأما ماري فتهدت تنهداً عميقاً ثم قالت : لا أظن أنني سأستطيع مغادرة ليفربول وإن حصل ذلك فلن يكون أكثر من أسبوع . التفت إليها « كارل ، وقال :

« أكون مسروراً جداً « ياماري ، إن أنت صحبتني إلى رحلة

في سيارتي إلى اسكتلندا وسنمر طبعاً على مقاطعة البحيرات
الشمالية (Lake District) هذه الرحلة تستغرق على
التقريب اسبوعاً وأنت تعرفين مبلغ جمال هذه البقاع .
التفتت إلى « هيلدا » ، في دهشة واستغراب ! ثم نطقت
على الفور :

« أعتقد أن مس (ماري شلر) سعيده الحظ لتكون
بجانب كارل اسبوعاً ترى فيه شمال إنجلترا وجمالها ، واسكتلندا
وجبالها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ؛ نظرت إليها ماري بكل
هدوء وسكينة وأصغت لما قيل ثم حولت نظرها إلى كارل
وانفرجت شفاتها ، وتحرك لسانها ببطء ثم نطقت : « أشكر كثير
الشكر « مستر جونز » ، أعتقد أن ذلك شرف عظيم تخلعه
عليّ ولكنني آسفة جداً للأسف لعدم أُمكاني « وعذك بقبول
هبتك » ، إلا إذا سمحت لي الظروف »

استمر الحديث على هذا المتوال حتى جاء دوري فسألتني
كلير : « ماذا تنوي عمله هذا الصيف ؟ » فرددت عليها :
« أتني أعتمر رحلة إلى القارة الأوروبية ولقد اتفقت فعلاً مع
« كوكس » على البرنامج لاستحضار تذاكر السفر .

فأجابت كلير : أنت الآخر حسن الحظ فكم تشوقت
لزيرة فرنسا والمانيا وسويسرا والنمسا ولكن الظروف

لم تساعدني بعد ، أرجو من صميم قلبي أن تتمتع برحلتك أكثر
تمتع ، وأسألك ألا تنساني في الكتابة فأكون مسرورة إن
أنت كتبت لي أهم ماتراه ، وطبعاً عن مخاطراتك وما يحدث لك .
فأجبت باسمي : « أشكرك كثيراً » كبير « سأفعل ذلك » .

امتد حبل الحديث حتى بلغت الساعة ٩ مساءً فنهضت كبير
من مكانها ثم قالت : « ألكم في قليل من الرقص في الصالة ؟ »
رد الجميع في صوت واحد : نعم نحن نحب ذلك كثيراً .

ذهبنا إلى حجرة الموسيقى أولاً وبها « البيانو والكمان ، وكثير
من الآلات الموسيقية . فجلس كارل إلى البيانو ووقع قطعة
موسيقية ، تطوعت هيلدا بغنائها - كل فرد من أفراد الجماعة
ماعدائي ، حاول العزف على إحدى الآلات التي بالغرفة حتى
أن معظم الآلات كانت تشتغل في وقت واحد وتعزف
قطعاً مختلفة .

بعد أن هدأت تلك العاصفة الموسيقية التفتت هيلدا إلى
كبير وسألتها عما إذا كانت تسمح لنا بالخروج إلى الصالة للرقص .
أشارت إلينا « كبير » إلى الصالة وبها « راديو جرامفون » ولقد
تحركت نحوه « كبير » وبعد برهة عزفت تلك الآلة نغمات
الرقص الشجية .

قضينا أكثر من ساعتين بين الرقص وبين سماع

« Classic Music » وكان الجميع يجيدون الرقص سوای لآنى
أولاً - لم أتعلم تلك الرياضة البديعة إلا حديثاً . وثانياً - أن قوامى
لقصره لا يساعدنى كثيراً على التحرك ببساطة وسهولة . وثالثاً -
أن أذنى ليستا موسيقيتين كما يجب حتى أتمكن من حفظ المسافة
من الوقت بين نغمات الموسيقى المختلفة .

وأهم ملاحظته فى فترة الرقص هو تهافت الفتيات الأربعة
على « كارل » وخاصة « هيلدا » فانها سألته مرتين ليرقص معها ،
وفى أثناء الرقص معه كنت أشاهد أن لسانها لم يقف عن الحركة
وأنها تنظر إليه نظرة ملؤها الشوق والحب . وأنها كانت تبذل
جهداً للجلوس بجانبه وقبما يجلس الجميع للاستراحة .

عندما بلغت الساعة الثانية عشرة انفرط عقد الجماعة بعد أن
لهجت ألسنتنا بشكر كبير ووالدتها لما لقيناه من الحفاوة والكرم
ولقد عبرنا عما شعرنا به من السرور فأنتنا بحق قد متعنا أنفسنا
حق التمتع .

سألنى كارل : أين تسكن . . . كامل ؟ — أسكن بموصلى .
— « هل لك فى مصاحبى ومارى حتى أوصلك إلى منزلك
فى سيارتى ؟ » . « أكون لك شاكرًا »

أمام منزلى تركت سيارة كارل . بعد أن شكرته وتمنيت له
ولمارى ليلة سعيدة ونوماً هادئاً .

الرحلة

غادرت ليفربول بعد ظهر يوم ٧ يولييه قاصدا الى القارة
الأوربية وكنت من ركاب الدرجة الثالثة التى تتساوى فيها
الراحة مع درجتنا الثانية : ففي القطار يلاحظ المسافر أن الشعب
الانجليزى حسن الهندام نظيف الملبس لا يتكلم لغوا ، مع
حبه للمساعدة إذا طلبت منه . جميع أفعاله تصدر عن ديموقراطية
حقة لامصطنعة ، ترى الكبير يداعب الصغير فى رقة ولطف ،
وترى الصغير يردّها فى بشاشة وأدب ، كأن الجميع خرجوا
من منزل واحد ، والذي يدهشنى فى أخلاق هذا الشعب هو
شدة تمسكه بالنظام ، كأن كل فرد من أفرادهم يمثل القانون ،
ولن ترى شعبا يحترم قانونه كما يفعل الانجليز . فالقانون فى
جميع حركاتهم ، فى عملهم ، ثم فى لهوهم . فمثلا إذا كانت
أحدى عربات القطار مكتوبا عليها ممنوع التدخين ، فمعنى
ذلك أنك لا تجدد « سيجارة » مشتعلة فيها . لا أدري السر فى
هذا غير أنى أعلاه بسيدى : الأول - هو أنه من مدة ليست
بعيدة كان القانون الانجليزى غابة فى القسوة فكان يوجب
إعدام من يسرق « نعجة » ، لهذا ورث الشعب الخوف
من القانون والعمل على احترامه حتى لا يقع أحد تحت
طائلة ذلك العقاب الشديد .

الثانى - التربية المنزلية وهى عنوان الأمم وسر تقدمها ،
فلقد بلغت أعلى مراتبها فى هذا الشعب . يشب الطفل دائماً
على حب النظام دون أن يؤمر بذلك . وكم كان إعجابى عندما
رأيت غلاماً حوالى الرابعة من عمره ترك مقعده بجانب
والدته دون أن يستأذن منها وذهب إلى جانب نافذة القطار
عنه يرى شيئاً : فلما عادت قالت له ما ترجمته الحرفية : أنى لن
أفعل هذا إلا إذا استأذنت من بجانبى . فرد الغلام فى صوت
هادى : « آسف جد الأسف يا أماه ولن أعود إليه مرة ثانية »
فكانت هى النصيحة الحقة التى تتجلى فيها روح الديموقراطية
فى الشعب ، وليست فى صورة الأمر المبتذل مصحوباً بالتهديد
والعقاب - وكان الجواب برداً وسلاماً .

اخترق القطار مقاطعتى لنكشير ودر بشير وأرضهما
ليست بالمسطحة ، يتخللها مرتفعات ومنخفضات ، وعلى
المرتفعات يرى المسافر اشجاراً عالية خضراء والأرض
تكسوها الخضرة فى ألوان شتى بين أخضر فاتح ، وآخر تيميل إلى
الزرقه - والجو غالباً فى هاتين المقاطعتين ثقیل الكثافة
لتشبعه بالأبخرة المتصاعدة من مداخن المعامل المنتشرة
على طول الطريق حيث أن لنكشير هى المركز الأساسى
للصناعات القطنية من غزل ونسيج ، وصناعة السفن -

ودربشير (شيفيلد) قد اقتصت بصناعة الحديد والصلب والآلات الحادة .

جميع المحطات التي مر بها القطار بين ليفربول ، منشستر ، شيفيلد تزدهم بالعربات ، بعضها يحمل الفحم والحديد من المناجم المجاورة وكذلك المواد الخام إلى هذا المركز الصناعي الكبير والذي كان يرى فيه العالم أجمع في يوم من الأيام مصنعا عالميا يستمد منه كل ما يحتاجه في هاتين الصناعتين ، والبعض الآخر من العربات يحمل المصنوعات إلى حيث لا تزال تزدهم بها أسواق العالم .

بعد شيفيلد ترى الأرض تقريبا مسطحة يتخللها قليل من المرتفعات ، وهي أراض زراعية معظم حاصلاتها في هذا الفصل الغلال والقرطم والبطاطس واللفت ثم العلف (Hay) وهذان الصنفان الأخيران يكونان غذاء للماشية في فصل الشتاء وأهمها البقر والغنم ثم الخيل ، وتستعمل الخيل في جميع مرافق الزراعة ، وأما البقر فلا عمل له مطلقا حيث يربى للارتفاع بألبانه ولحومه كما هي الحال في معظم الممالك الأوروبية .

وصل القطار إلى هارتش في الساعة التاسعة والنصف مساء وانتقلنا إلى باخرة هولندية وهناك شعرت بقليل من الوحشة ولكن لا يزال فيه من يتكلم الإنجليزية حيث لا أعرف غيرها .

أصبح الصباح ورست الباخرة على (Hook of Holland) وركبت القطار إلى روتردام حيث وصلت الثامنة صباحاً . هنا شعرت بالوحدة وما فيها من لذة وألم ، فأشرت إلى الخمال بحفظ متاعى فى مخزن المحطة حتى العودة ، وصحبنى إلى داخل المدينة رجل ألمانى يناهز الأربعين من عمره وهو لا يعرف من الانجليزية إلا كما أعرف أنا من الألمانية وذلك لا يزيد عن - هذا جميل . وقهوة . وسيجارة . وهذا البناء عال - سرت بجانبه وهو طويل القامة ، ضخيم الجسم ، يمثل الشعب الألمانى فى عسكريته ، وكان كل منا يتحدث إلى الآخر بالإشارة والتمثيل . مكثت متجولاً بهولاندا ثلاثة أيام ، كنت فى خلالها شديد التشوق لمعرفة أكثر ما يمكننى معرفته عن حالة البلاد الاجتماعية والسياسية وأهم ما لاحظته أن أهم الصناعات بهولاندا هى القائمة على الحاصلات الزراعية كالغلال والخضروات واللحوم والحبوب والزبدة وتربية الحيوان الداجن . وتصدر هذه إلى البلاد القريبة منها (إنجلترا وفرنسا وألمانيا) على أن هولاندا لم تعدم بعض الصناعات ، فيها مناجم للفحم فى (Waaluk) وفيها الصناعات القطنية من غزل ونسيج ، وصناعة الأصواف والحريير الصناعى ، وصناعة الدخان ، والمواد الكهربائيه « فيلبس » المشهور بمدينة (Eindhoven) وبعض

هذه المصنوعات يستهلك داخل البلاد والبعض يصدر إلى الخارج وبخاصة إلى مستعمراتها .

لقد ذكر لي أحد الثقات أن هولاندا - عدد سكانها ما بين الستة والسبعة ملايين نسمة - قلما تجد فيها هولانديا أصيلا لأنها تجاور ثلاثا من أكبر الممالك الغربية وهي (إنجلترا وفرنسا وألمانيا) وقد اختلطت حضارتها بحضارتهم فتجد الثقافة مزججا من ثقافة الأمم المجاورة - على أن الهولندي متوسط الحجم ، أميل إلى طول القامة منه إلى القصر ، دائما نظيف الملابس حسن الهندام ، يعيش عيشة ديموقراطية حقة وفي سعة من العيش ، حيث يستأجر العامل الذي يشتغل بالزراعة بما يقرب من ١٨٠ قرشا في الأسبوع - هذا عدا ما يأخذه من الحقل الذي يشتغل فيه من البطاطس واللبن إذ يأخذ ما يكفي حاجته . وربما يرجع السبب في رخاء هولندا إلى عدم اشتراكها في الحرب العظمى .

والهولندي بطبيعته مشهور بالشفقة والأحسان يميل إلى السلم ، فبعد انتهاء الحرب الكبرى أخذت هولندا عددا كبيرا من يتامى الألمان وتعهدت بتربيتهم وتعليمهم .

أما التعصب الديني فهو شديد بين الأهلين وينقسم السكان بين بروتستانت (ومعظمهم من أصل ساكسوني)

وكاثوليك حتى أنهم خرجوا بالدين عن معناه الروحي إلى أن تحكم في نظام هيئتهم الاجتماعية والسياسية ، فتجد برلمانهم مؤلفا من عدة أحزاب ولكن أهمها (الحزب الكاثوليكي والحزب البروتستانتي ثم حزب العمال) . ولقد ذكر لي أن المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت قد أخذت حدها فوق الأذاعة اللاسلكية قيل وصولي بثلاثة أسابيع وانتهى الأمر أن ينصف الأسبوع بين الكاثوليك والبروتستانت مع الأذاعة العمومية . ترى مثل ذلك الانقسام في المدارس والجامعات فتجدها أما كاثوليكية أو برتستانئية أو مدارس عمومية .

في القطار الى هامبورج

وصلت إلى الحدود الألمانية يوم ١١ يوليه وهنا شعرت بالوحدة وما فيها من لذة وألم ، فيالها من ساعة يرفرف فيها طائر الوحدة والناس حولي ولكن لا أعرف ماذا أقول ، ويتكلمون ولا أعرف ماذا يقصدون ، ويضحكون ولا أدري ما الفكاهة . كنت من ركاب الدرجة الثالثة وهي ذات مقاعد خشبية يباح في معظمها التدخين وعلى وجه التقريب تشبه درجتنا

الثالثة ، إلا أن نسبة كبيرة من ركاها من الطبقة المثقفة الذين يعانون الآن ما خلفته الحرب العظمى من الفقر المدقع والدمار في معظم الممالك التي اشتركت فيها وخاصة ألمانيا .

لاحظت أن عربات القطارات تملأ بالدخان ، وأن الألمان يتكلمون كثيرا في القطار بخلاف القطارات الانجليزية فإنهم تكلموا فقلما يسمع لهم صوت ، وأن كثيرا من الركاب يأكلون غذاءهم كاملا وهم على مقاعدهم وهي عادة نادرة الحصول في قطارات إنجلترا . الألمانى ساكن الشمال طويل القامة ضخيم الجسم تلوح عليه العسكرية واستعدادها ذو عينين زرقاويتين وشعر أصفر منسدل . يلاحظ المسافر وهو يطل من نافذة القطار أن شمال ألمانيا مسطح الأرض كما هي الحال في هولندا ومعظم حاصلاته الزراعية في هذا الفصل من السنة القمح والقرطم والبطاطس واللفت ويستعمل الأخير غذاء للماشية في فصل الشتاء حيث تغطي الأرض بالثلوج فتجذب - والبرسيم والحشائش للراعى ويسمى العلف . والألمان يعنون بتربية قطعان البقر ليأخذوا منها اللحوم والألبان ، وبالجملة فإن أهم موارد ثروة شمال ألمانيا هي الزراعة وتربية الحيوانات الداجن وتراهم يستعملون الخيل في جميع أعمال الزراعة وخاصة الحرث والنقل بالعربات .

على طول الخط يرى المسافر كثيرا من طواحين الغلال التي تدار بالهواء وهذا دليل على ان الحدود الجغرافية لدولة ما لا يمكن أن تؤثر في الشعوب كما يؤثر فيها روح الوسط « Environments » التي يتأثر بها التكوين الجسمي والخلق والعقل - فتجد شمال ألمانيا وهولندا مطبوعين بطابع التشابه والتماثل .

لا يعدم الفنى وهو يحول بنظره من نافذة القطار السريع أن يرى من المناظر ما يروقه ، فهناك كثير من الغابات تتخلل شمال ألمانيا ومعظم ما يغرس وما ينبت فيها من الأشجار العالية الضخمة هي الصنوبر والبلوط - فياله من منظر بالقرب من « Rotenburg » يأخذ باللب ويسحر الرائي ؛ هو منظر حقل من القمح قد نضج فأصبح لونه أبيض يميل الى الصفرة الناصعة ، وأمام هذا الحقل استنبتت المرعى ترى فيها جميع ألوان الخضرة من لون باهت يميل الى الصفرة إلى أخضر قاتم ، وخلف حقل القمح غابة كثيفة أشجارها عالية ولونها أخضر يميل الى الزرقة تنفذ منها أشعة الشمس وتحجب بعضها . وكان وقت الغروب فاختلطت تلك الألوان الطبيعية الحذابة ، من أحمر فاقع كأنه جمرة نار تلهب من أفق تكحل باللون البنفسجى البديع وسط لجة من السماء الصافية الأدهم ، النقية الزرقة .

لن يمكننى أن أفي ذلك المنظر حقة من الوصف مهما أوتيت
من قوة الافصاح والتعبير . ولكن لا بد له من ريشة مصور
ماهر عشق الطبيعة فاسلمت إليه قيادها .

وصل القطار الى برمن ودخله ليف من طلبة هامبورج
« Technical School » يمثلون الشباب الألماني في عنفوانه ،
تبدو عليهم جميعا الصحة بأجلى مظاهرها ، فهم طوال القامة ،
أقوياء الأجسام ، كثيرو الحركة يمرحون ويلعبون ، فبعضهم
يعزف على الآلات الموسيقية المختلفة ، والبعض يقرأ ، والبعض
الآخر يترنم بأنشودة حب وغرام ، أو واجب ووطنية ، يعرفون
كيف يصرفون وقت فراغهم فيما هو أجدى عليهم ، فيدخلون
على أنفسهم الفرح والسرور . لا يميلون الى الدعة والكسل .
وصل القطار إلى هامبورج في منتصف الساعة التاسعة
من ذلك اليوم . بعد أن كنت قد استأنست بركاب القطار
أصبحت وحيداً فشعرت بالوحدة الشعور الحقيقي وما في
ذلك من ألم ولذة - أشرت الى الجمال بحمل متاعى خارج
المحطة وقد فعل - ثم سأله هل تتكلم الانجليزية - فمز رأسه .
أطرقت برأسى قليلاً ثم صممت على أن أستعمل الإشارة
إن أمكنتنى ذلك - وبينما أنا فى حيرة من أمرى لاحظ
على الجمال علامات الارتباك ولا بد أنها كانت كثيرة بادية

على وجهى المتعب المضنى من مشقة السفر وطوله ، وفاه باسم
« أوتيل » - وقد خفت أن أقولها ربما كان لها فى الألمانية
معنى غير معنى الفندق - فقلت على الفور : نعم .

كان الجوع قد أخذ منى مأخذه ففكرت فى نفسى : هب
أنى دخلت محالا للأكل - وهب أنه ليس به من يعرف
الإنجليزية - فماذا أطلب وأنا لا أعرف اسما واحداً من أسماء
الطعام . فما الحيلة ... !!

سنح لى خاطر سريع وهو أن بالمحطات عادة تباع كتب
يستعين بها السائح والزائر ، فرجعت إلى المحطة وسألت
عن كتاب من الإنجليزية للألمانية يكفى حاجة المسافر .
وأخيراً عثرت على ما أردت ، وقد حفظت ترجمة ما أريد .
دخلت أحد محال الأكل ، وانزويت فى ركن من أركانها فلما
جاء الجرسون - كنت قد نسيت ما حفظت - فسألنى ... فأومأت
إليه برأسى - وسألته : هل تعرف الإنجليزية ؟ - فhez رأسه -
- وكان موقفاً محرجاً - فاضطرت أن أسحب من جيبي ذلك الكتاب
الصغير ووضعتة أمامى واخبرت ما أريد (مكتوباً بالإنجليزية)
وأشرت بأصبعى على الترجمة الألمانية .

لما خرجت من المطعم وأردت السير قليلاً فى نفس
الشارع قاصداً الى « فندقى المتواضع » ، لفت نظرى « معرض

للأزياء الحديثة ، لحسن تنسيقه ، فوقفت هنيهة أطيل النظر إليها ؛ وبينما أنا كذلك وإذا بفتاة يتم مظهرها على أنها ليست من « الصنف المحتشم » بدأت تكلمنى ، فـرززت رأسى - عرفت انى حديث العهد بهمبورج خاصة وألمانيا عامة - فحاولت أن تترجم إلى الانجليزية ما معناه « هل تريد غرفة ... ؟ » ، فأجبتها فى أدب ولطف « أنى محلا باللوكاندة ... ! » ، قالت - لا بأس أن تصاحبنى مدة من الزمن ثم تذهب بعدها إلى اللوكاندة ...

اعتذرت لعدم إمكانى ذلك ... !!
- شكرتنى الفتاة فى أدب ولطف . ثم انصرفت .
وليت وجهى شطر الفندق بخطوات متثاقلة أفكر فى مثل هذه الفتاة التى تبلغ من السن نحو الخامسة والعشرين . لاتزال فى بدء حياتها ... ثم تضطر .. ومن يعرف والأسباب كثيرة إلى أن تزج بنفسها فى حياة الشقاء وأن ترضى أن يكون جسمها سلعة تعرضه فى سوق المساومة على كل من يدفع فيه ثمنها ...
ما أشقى الحياة وما أقساها على أمثال تلك النفوس البشرية . !!
أمثال تلك الفتاة كثيرات بهامبورج وبمدن ألمانيا فتجدهن واقفات على المنعطفات ، واطراف الشوارع والحارات ، أو جالسات على المقاهى أو فى محال الأتس والطرب . نعم لقد سقط

الكثيرات من النساء في أوروبا الوسطى وخاصة منها في الدول
المغلوبة على أمرها في الحرب الكبرى ، النمسا والمجر وألمانيا ، والتي
امتدت إليها يد الفقر والشقاء فكثرت بها البطالة وأصبحت الملايين
من رجالها ونسائها لا يجدون عملا ، وليس لديهم ما يقتاتون به .

المرأة الألمانية قبل الحرب وهي الآن عام ١٩٣٠ - لم تخل
مملكة من الممالك أو جيل من الأجيال ، ممن ذلت أقدامهن فوق
فريسة الشهوة أو الحاجة - ولكن شتان بين عدد النسوة
الساقطات عام ١٩١٤ وعددهن عام ١٩٣٠ .

إن كان عدد السكان في ألمانيا قد تضاعف فإن عدد تلك
النسوة لست أغالى إن قلت : أنه ربما قد ضرب في نفسه . .
ولكن ما السبب ؟ .

أنتى طالب علوم ويجب أن يكون منطقى سليما لا أتعجل
النتائج بل يجب أن أفحص وأدقق فى المسببات لها

هل زين لهن الشيطان الانتحار على مذبح الحياة إطاعة
للشهوة النفسية الدنيئة . . ؟

هل تقدم الحضارة والمدنية قد قلب الكثيرات من المرأة
الألمانية التى كان يضرب بها المثل الأعلى فى العفة وطهارة القلب
وحب المنزل أن تخرج على تقاليد الموروثة منذ أجيال .
فيظهرن بذلك المظهر . . ؟

هل فقد أمثال تلك النسوة عاطفة الاخلاص لشخص واحد... وهل انفصلت (في حكمها) الروح من الجسد فأصبحت لا تجد غضاضة في الاتجار بجسدها فتربح من وراء ذلك متعة النفس وكسب المال ، مع احتفاظها بالروح وهي الكنز المعنوي الثمين ؟ . .

هل السبب ليس هذا ولا ذلك ، مما تقدم ذكره ، وإنما هي الظروف القاسية المريرة التي اضطرت تلك البائسة المنكوبة وأمثالها أن تخر صريعة على مذبح التضحية والعفة . ؟ ولكن ماهي تلك الظروف مهما بلغت من القسوة والشدة حتى تستطيع ان تكون معولا يهدم الشرف والعفة . ؟ . هنا تختلف وجهات النظر وتعدد . ربما كانت تلك البائسة وأمثالها قد قدمت نفسها قربانا من أجل عزيز لديها - قلزة كبد - أم أقعدتها الحياة - أب أمتدت اليه الشيخوخة - أخ قاصر - أو أخت لا حول لها ولا قوة - ما أكثر أمثال هؤلاء المحتاجين وبخاصة في أوروبا بعد تلك « المجزرة البشرية الهائلة والنكبة التي أثقلت كواهل العالم أجمع خلال أربع سنوات طوال كانت تحصد فيها المدافع والقنابل والغازات - وما إليها من مخترعات العلم الشيطانية - الرجال والمال والعقار والضياع حصاد الهشيم ، .

مثل تلك الفتاة كمثل الشمعة التي تحترق فتضيء لغيرها
وهي في طريق الفناء .

ولكن هل تفتي الشمعة حقاً عند ما تحترق ... ؟

الجواب : لا - المادة لا تفتي وإنما تتحول من عنصر إلى
عنصر ، ومن حالة إلى أخرى - الماء سائل ، فان سخن تحول إلى
بخار وانتشر في الجو فأصبح لا يرى ، وان برد أصبح صلباً .

ذلك مثل الكثيرات من أمثال تلك الفتاة يقدمن
أنفسهن في خشوع على مذبح الأعراض ، ويحتفظن بأرواحهن ،
ويجدن بأجسامهن لمن عز لديهن ، فيجلبن إلى قلوب الأعزاء
فرحاً ، ويخففن كثيراً من عبء الحياة على من لا نصير لهم ،
من شيخ هرم ، أو طفل لم يكن في هذه الحياة شيئاً ، فيجب أن
تبتسم له ...

كثيرات من هؤلاء النسوة الساقطات اللاتي أخذن على
عاتقهن نذراً كالتى ذكرت ؛ تحترق أجسامهن ولكنها
لا تفتي ، بل تتحول إلى - كم من البشر والفرح ، والطرب
والسرور - وكم من عبء خففت بسبب من ضحت - وكم
من صغير كفله وامتدت إليه يدها وهي آمنة مطمئنة تنقده
من احتراق جسمها - وان هي ظفرت من ذلك الصغير أو
ذلك الشيخ الهرم بابتسامة ملؤها العطف والحب ، تحولت

عناصر احـ تراق جسمها إلى ذلك الشيء المعنوي الذي تتغذى
به روحها ، فتقابل الله بايمان قوي وروح ثابتة .

الشعور بالواجب

مضى على هذا الحادث ما يقرب من الأسبوعين لست
أريد أن أتعـ قارئى فى تفصيل ، كيف قضيتها متجولاً فى
شمال ألمانيا ، همبورج - كيل - فلنسبوخ - هليجولاند -
وغيرها ، وإنما أريد أن أثبت فى هذه المذكرات المتواضعة
أنى وبعينى العلمية البحتة ، المجردة عن التحيز والعقيدة ، كنت
أنظر نظرة المدقق الباحث كلما سنحت لى الفرصة لمعرفة عادات
القوم ، ومختلف نواحي حياتهم ، ونظام مجتمعهم الأخلاقى
والعملى والعلمى .

لاحظت أن سكان شمال ألمانيا فى كثير من ميولهم
الذوقية والطبيعية أكثر الناس شهاً بالانجليز - ولا غرابة
فى ذلك إذ أن الجميع من أصل واحد - وتلك الديار هى
الموطن الاول للسكسونيين ، فهم يعشقون الطبيعة ويحبونها ،
يرون الجمال الحقيقى فى الخضرة والزهر ، والحيوان والماء ؛

فقلما تجد منزلاً ليس به حديقة مهما صغر حجمها ، وحيوان
مهما قلت قيمته - كلب يلعب ويمرح ، أو قطّة تموء ، أو بلبل
يغرد ، أو حصان يصهل ، حسب مقدرة المالك وظروفه .

أما القوم أنفسهم فلا يزالون يحتفظون بتراثهم القديم ،
وتقاليدهم العتيقة - يعتنقون المسيحية على المذهب البروتستانتي
ويعتقدن في الله حقاً ، ويقسمون جهداً أيماهم أنهم للوطن
وفي سبيله (Vaterland) . يذكرون أسماء فردريك
الأكبر ، وبارون فون اشتين ، وبسمارك وغيرهم ممن ضحوا
براحتهم وسعادتهم وهنائهم في سبيل الدعوة للوحدة الألمانية
ووجوب الاتحاد - بكل خشوع وإجلال واحترام - لا
يعترفون بهزيمة السيف والمدفع وما حل بهم بعد عام ١٩١٨ .
وكيف ينتظر منهم ذلك . . . ؟ بعد أن امتزج بدمائهم
حب الوطن والاخلاص له ، فأصبحوا يرددون في شمم وفخر
« بروسي » ، « ألماني » فوق الجميع ، وإن كانت « فرساي » قد
قلبت أظفارهم باقتطاع أجزاء من وطنهم الأصلي يسكنها المان
صرف أصليون وضمها لغيرهم من الدول المجاورة ، وبتحديد
قوة دفاعهم عدداً وعدداً والقضاء على الاسطول ، والاستيلاء
على ما كان لهم من مستعمرات وراء البحار ، وأثقال كواهلهم
بالديون والتعويضات ، بما كاد ينوء بها كاهلهم وتنشل بها حركتهم

التجارية ، وتنهار أمامها شهرتهم العالمية - إلا أنها عجزت عن أن تستأصل من دمائهم ، ذلك الحب الموروث لبلادهم ، والذي تمتلئ به قلوبهم فتبعثه نقياً طاهراً في شرايينهم ليغذى كل جزء من أجزاء أجسامهم عند كل نبضة من نبضات قلوبهم .

نرى القوم يتسمون للحياة مهما عبست ، ويتحملون المصاعب والمشاق ، يكدون ويعملون في صدق وأمانة ، يحرصون على وقتهم أكثر من حرصهم على نقدهم ، لا شيء أعز لديهم مما هو أنفع وأجدى عليهم وعلى وطنهم - لقد أقسم الجميع بميناً لا يحثون فيها أن واجباً لزاماً عليهم إحياء ألمانيا وبعثها من جديد ، بعد أن امتدت إليها يد العيث في سياستها ؛ وكادت الفوضى تحل فيها محل النظام ، حتى طرب لذلك أعداؤها الذين يراقبون مجرى الأمور فيها عن كثب وكيف أن سياسة الهدم والتفرقة والقضاء على الوحدة الألمانية التي طالما منوا أنفسهم بأنها ناجحة فإن السوس متى ابتدأ في النخرقانه ليس من الهين استئصاله .

ليس من العسير أن يلاحظ السائح بتلك البلاد ذلك المجهود الجبار الذي يقوم به كل فرد من أفراد الشعب فقد نسي أو تناسى جميع الفروق الطائفية والاختلافات الاجتماعية (Class Distinction) وأصبح لا فرق بين غنيهم

وفقيرهم - كلُّ يقـدم قربانه حسب ما في استطاعته على مذبح
التضحية للوطن العزيز - قام الجميع بتأليف جبهة قوية لإشهاد
العالم أجمع على أن بالبلد رجالا لا يقبلون الضيم ولا يؤخذون
بالوعد الكاذبة - يريدون انتصاراً أدبياً في معركة الحياة ،
ويرددون بقلوب عامرة بالایمان « ألمانيا فوق الجميع » . ولكنهم
في هذه المرة لن يلجأوا إلى السيف والمدفع فليتناسوا
عسكريتهم ولو ردحاً من الزمن إلى ما هو أحد وأمضى .

أتدرى ماهو أيها القارىء . . ؟

هو الانتصار في معركة المارك والجنيه والدولار . ! ! تلك
المعركة التى اشتد وطيسها وحى في هذه الأزمة العالمية الخائقة .
والتي كادت تصرع أمما كبيرة طالما جاهرت بثرائها وبمقدرتها
على الشراء لما لديها من كنوز الذهب والفضة ومن موارد ظن
الكثير أنها لا تنضب .

لكى يتسنى للألمان النجاح في هذه الحرب المعنوية المادية ،
وجد أقطابها أن لابد للوصول إلى غاية واحدة مهما عانوا
في سبيل ذلك ، فلا شيء أعز من أن تنتصر فكرهم القومية ،
هذه الغاية هى نشر تجارتهم ورواج سلعهم في جميع الأسواق
العالمية رغم ما بذته الممالك والدول الأجنبية من قلاع وحصون ،
بارتفاع التعاريف الجمركية ، وقوانين حماية المصنوعات الاهلية

من المنافسات الأجنبية ، وعراقيل المعاهدات التجارية ، وتعقد الطرق الدبلوماسية وما الى ذلك من الصعاب - رأى الألمان العاملون أن أقوم السبل لأدراك غايتهم هي تخفيض أثمان الانتاج لبضائعهم إلى أدنى حد يتمكنون معه من مناهضة المنافس والكفاح في هذه المعركة العالمية .

لقد دوى صوت الواجب في جميع أنحاء بلاد الريخ ، فردد صده كل فرد حسب استطاعته ونزلت في مدة قصيرة أجور العمال (المهرة منهم وغير المهرة) إلى النصف أو أقل منه ، وكثرت ساعات العمل عن طيب خاطر ، وأقبل الزراع وفلاحو الأرض على استعمال الطرق العلمية الحديثة من ري وتسميد وانتقاء للبذور وما الى ذلك مما أنتجته بحوث الباحثين وتجارب المتقدمين والمعاصرين ، واستعملت الآلة في جميع مرافق الزراعة (بدل الماشية والمحراث والساقية عذنا) وأصبحوا لا يحفلون بالمحافظة على القدم ، ولا التمسك بأهدابه ، وعرفوا حقا ان هذا عصر صراع ، فالهجوم فيه أضمن من الاستكانة ثم محاولة الدفاع . ولا بد للهجوم من جبهة منظمة يقظة ، سريعة الخاطر قوية الحركة ، لذلك كان لزاما عليهم استعمال الآلة مادام العصر يتطلب السرعة وعدم التواني .

هذا ما كان من أمر سواد الشعب وأما ما كان من أمر الطبقة

المتوسطة والعليا فلقد قدموا من التضحية بمقدار ما فرضه عليهم
الواجب أو أكثر ، إذ خفضت مراتب الموظفين وخف العبء
قليلا عن ميزانية الدولة ، وزيد في فرض الضرائب على الأغنياء
الملاك منهم وأصحاب الأعمال لمصلحة التجارة أولاً ، ولمساعدة
الستة ملايين من العمال الذين لا يجدون لانفسهم عملاً -
ولكنهم جزء من المجتمع فهم منه واليه ، وعليه أن يتكفل
بأيوائهم وإطعامهم وتعليم أبنائهم ، ليخففوا عنهم بلواهم ،
وليشعروهم أنهم يشتركون معهم مادياً وأدياً فيما أصابهم
من فاقة وفقر .

أسرة في « كيل »

كانت « ماري » قبل مغادرتي (ليضربول) قد حدثتني
كثيراً عن مدينة « كيل » وأغرقتني كثيراً على زيارتها وأعطتني
بطاقة بعنوان أسرة تربطها بها صلة الصداقة والألفة والمحبة
حيث كانت البنت الثانية لهذه الأسرة زميلة لماري أيام
دراسنها الثانوية والعالية .

وصلت « كيل » وحيدا في مساء احدى ليالي يوليو القمرية
وكان النسيم عريلا ، والجو صحواً ، والسماء صافية الأديم .

وبعد أن استرحت قليلا خرجت الى السير فى شوارع
المدينة ، لا أحفل بصوت العربات ولا أريد أن أقيد نظرى
فى تلك العزلة بشئ. لا يروقى ، وعلى الأخص أنتى لم أقصد الى
جهة معينة ، فليست أريد أن أتابع السير الى آخر الشارع أو
ينهى بى المسير الى مكان أرغبه - كل شئ بدى على ظاهره إن
لم يكن جميلا ، فهو على الأقل مشوق أما لنفسه ، او لما
يحويه من مغزى غامض لم أتعرفه بعد - والذي يمكننى أن
أسجله على مدينة « كيل » ، أن مظهرها يدل على الهرم وشئ
من الضيق والفاقة ، فى زائرها ان رصف شوارعها غير
منتظم كما ان مبانيها يبدو عليها القدم ، وقد ندرت المادة او كادت
من جيوب معظم الألمان ، فعجزوا عن ان يظهروا عظمة المدينة
وطرقاتها العامة على احدث طراز وانسق تنظيم .

ما كاد الليل يمضى حتى أفرغت مجهودى فى صباح اليوم
التالى للاتصال بالعائلة صديقة « مارى » حتى تم لى ذلك وقد
دعيت لتناول الشاى فى الساعة الرابعة من نفس اليوم .
قبلت الدعوة وما تحملته من مشقة التنقل من ترام لآخر ،
ومن سؤال « كمسارى » ، لآخر ، حتى وصلت الى المنزل ، وفيه
استقبلنى رب الدار وهو شيخ جليل طويل القامة أبيض الشعر
مفتول الشاربين وسلم على منحنيا فى أدب واحترام .

لم أنته من مصافحته حتى رأيت باقى العائلة فى انتظارى
تقدمهم سيدة جليلة عليهم سمة الهيبة والوقار فقدمنى الشيخ
الى أفراد العائلة ولم ينس منهم أحدا .
هذه زوجتى ... وهذا ولدى الأكبر فرتز ... وهذا ولیم
وهذه آنجس ثم صغيرة العائلة مارلين .

تبعث الشيخ الجليل الى حجرة الاستقبال ، وهى غرفة
واسعة مؤثثة بأثاث معظمه من تراث الجيل الغابر وتحفة ثمينة
تعبر عن مهارة من صنعها - يدل مظهر ذلك الاثاث على أن توالى
الأيام وكر الأعوام لم ينالامن نخامته وحسن تنسيقه الا القليل .
لم أكد استقر فى مجلسى أمام النافذة الخربية حتى جلث
بنظرى لمشاهدة مجموعة نفيسة من الصور الزيتية التى تحلى
جدران الغرفة ، ولم ينس من اختارها أن يضع بينها صورة
الرئيس هندنبرج ، فهو رمز الوطنية ومعبود الشعب الألماني .

كان اليوم صحوآ ، والشمس قد قاربت الغروب ، فانعكست
منها أنوار زاهية على جدران الغرفة وما فيها من أثاث وصور
فنية ملأتها بروح العزة والكبرياء ملكت على مشاعرى ، حتى
كدت أنسى ولو برهة قصيرة من الزمن أصحاب المنزل وأفراد
الأسرة ، وخطرت ببالى سلسلة من الأفكار المتقطعة غير المنتظمة .
هذه الأسرة ذات مجد وعز قديم يدل على ذلك قدم الاثاث

مع نخامته ... !! هل عجزوا عن التجديد حتى يحلون محله أثاثا
من آخر طراز ... ؟

ربما ضاقت ذات أيديهم وليس لديهم من مال ما يتمكنون
من ان يستبدلوا به غيره ... !!

ربما كانوا من هواة القديم وجمع التحف الفنية الثمينة . .
ان كان هذا او ذاك فالشيء الذى لا شك فيه « أن عندهم
ذوقا ، ترتيب فنى منسق ، جميع قطع الأثاث التى بالحجرة
منسجمة ، واختيار الألوان يدل حقا على ذوق فنى سليم .
التف حولى جميع أفراد الأسرة - ما عدا آنجس
التي اختفت .

بدأوا يتحدثون إلى فى موضوع القصد من زيارتى ألمانيا
وهل أنا أحب بلادهم ... ؟
وأى البلاد التى زرتها .. أفضل . ؟

وكم من الوقت أعزم أن أمضيه فى كيل ... ؟
وما الى ذلك عن حالة الجو ، ثم انتقل بنا الحديث عن
« مارى » - وكم هى بذت مخاطرة لا تعرف الخوف . ولكنها فى
الوقت نفسه فتاة ذات قلب حنون ينفر من القسوة وتجتذبه
الشفقة والأحسان .

وفى اثناء الحديث دخلت « آنجس » وأعلنت ان الشاى قد

اعد ، فانتقلنا جميعا الى مائدة الطعام ، وتناولنا من الحديث شتى
الموضوعات ، فعلمت من سير الحديث أن الشيخ كان يشغل
وظيفة مرب بأحدى المدارس وهو الآن فى دور التقاعد ،
وان الابن الأكبر « فرتز » طالب طب بجامعة كيل
وآنجلس بالجامعة نفسها تدرس علم الاجتماع و « ولیم »
و « مارلين » بالمدارس الثانوية .

لم تمض فترة الشاى ونحن فى الحديث نصول ونجول حتى
شعرت بائتناس عظيم ، ولقد أفسحوالى صدورهم جميعا حتى خيل
إلى أنى تشرفت بمعرفتهم شهوراً بل أعواماً لا ساعة او
دقائق معدودات .

وهنا يجب على أن أسجل لقارئى أن الفرق كبير
والهوة واسعة ، بين إمكان التعرف بالألمانى والاختلاط به
مع الائتناس والشعور برفع الكلفة والاحتياط - وبين
الصعوبة التى تعترى « الغريب » وخاصة الشرقى فى سبيل
التعرف بالانجليزى - فان الأخير مهما كانت درجته الاجتماعية
فهو « محافظ » غالباً - صعب عليك أن تكلمه إلا إذا قدّمتَ إليه ،
وان أنت قدّمتَ إليه فصعب عليك أن تتكلم معه كثيراً - لأنه
لا يتكلم عادة الا اذا سئل ، وان هو سئل أجاب اجابة قصيرة
متمسكا بالمثل القائل « ان كان الكلام من فضة فالسكوت

من ذهب ، والانجليزى كريم فى منزله ، صادق فى قوله وفعله إلا أن جموده وعزله مع ما يتبع ذلك من البرود الذى ورثه بطبيعته ، كل ذلك جعل معرفته أمراً ليس بالهين . وليس لأجنى أن يدعى معرفة الانجليزى المعرفة الحقة لأول مقابلة ولا بد لذلك من مقابلات ومقابلات ... وأظرف ما سمعت فى هذا الشأن حديث مع أستاذ انجليزى عرفته مدة سنتين حتى بلغنى الأمر أن أصارحه القول والفعل .

قلت : أنى أكره الانجليزى لتحفظه ونفوره من الناس وخاصة الأجنى فهو بذلك مثل الارستقراطية المتبدلة وعدو الديموقراطية .

قال : أنى أخاف أن أصارحك أنك لست على حق فيما تقول .

قلت : ولم . ألك أن تفسر لى تلك الظاهرة ، فهو فى العالم كله مشهور بأنه محافظ ومتكبر « Snob » .

قال : ليس الانجليزى عدواً الاجنى مهما كانت جنسيته أولونه ولا هو « متكبر » أو مغرور بنفسه وقوته ، ولكن حيائه وعدم قدرته على رفع الكلفة فى الحديث ، وأظهار العواطف النفسية ، وخجله من الناس ، تجعله يفر منهم إذا لم يكن قد سبق له التعرف عليهم .

قلت : وعلى فرض أنه تعرف على الناس فإنه في أحيان كثيرة يظهر أمامهم كأنه قطعة من الثلج ولكنها متحركة .
قال : يحسن أن أختصر لك حديثي بأن أقص عليك قول والدي لي مرة ، وهي كلمة لازلت أذكرها منذ كنت صغيراً ، لا بد للأنجليزى لكى يعرف أخاه الأنجليزى المعرفة الحقة أن يعاشره خمس سنوات ، وعلى الأجنبى أن يصبر أضعافها حتى يتمكن من ذلك .

قلت مبتسماً : « سيدى . . الحياة قصيرة وليست هي بالرخيصة حتى نضيعها في معرفة اثنين أو ثلاثة من أبناء جنسكم . »
انتقلنا جميعاً إلى غرفة الجلوس وبدأ الشيخ يقص على تجاربه في الحياة في مهنته وفي حياته العامة وكان يجيد الانجليزية فينطق بها كأحد ابنائها غير أن هناك تلك النغمة الألمانية لاتزال تبرز بمخارج اللفظ والكلمات . وعندما تعرضنا في الحديث إلى الحياة الجامعية في ألمانيا ومثلها في انكلترا قال الشيخ بصوت جلي وعبرة واضحة : « أتنى أعتبر أن طلبة الجامعات البريطانية لم يتقدموا كثيراً في نظامهم عن أيام كانوا بالمدارس الثانوية فهم في كثير من الوجوه لايزالون « School Boys » . »

قلت : وكيف ذلك فأنى أجل النظام الجامعي بانجلترا

وأحترمه وأحبه .

قال : لكل مذهبه ورأيه ولكنك سوف ترى أن نظامنا يختلف كثيراً عما هو متبع في الجامعات الانجليزية ، وخاصة بعد الحرب الكبرى حيث أصبح الكثير من طلبتنا يعانون آلام الفقر والفاقة ، فأنى لا أغالى أن قلت لك أن ٨٥ من كل مائة من الطلبة الألمان فى عوز وضائقة مالية ؛ ولهذا تركنا لهم الحبل على الغارب ليديروا أنفسهم ، فيكدوا ويعملوا ، ليكسبوا بعرق جبينهم فى الأجازات التى تبلغ الستة شهور من كل سنة ما يمكنهم من أن يحصلوا على ما يعيشون به مدة دراستهم وما يتحملونه من مصروفات جامعية وغيرها . ونحن من ذلك نقف موقف الملاحظ المدقق الذى يسدى النقد فى ثوب من النصيح والإرشاد ، لا نريد أن نسوقهم إلى العمل سـو قاً ، ولا نلقنهم الدرس فى ساعات متواليات من الحصص والمحاضرات وما إلى ذلك كما هو متبع فى إنجلترا . وهما الأكبر أن نعدم للحياة رجالا يقابلون صعوباتها ويروضون أنفسهم على قهرها .

قلت : هل لسيدى الأستاذ أن يختصر لى قوام الحياة الجامعية فى ألمانيا فى جملتين أو ثلاث . ؟

أطرق الشيخ برأسه على الكرسي المريح الذى يشغله وأغرق

فى تفكيره برهه قصيرة من الزمن - ثم اعتدل فى جلسته وقال
سأحاول ... - ولكن أرجو ألا تلومنى إن أنا أجملت ولم أحص .
ثم سكت الشيخ برهه واستطرد فى الحديث :

قوام الحياة الجامعية عندنا مع ترتيب الأهمية على ما أعتقد
هو - صلاحية الجسم والعقل - حب النظام - الاعتماد على
النفس - حب البحث والتدقيق مع التخصص الضيق فى ناحية
من نواحي العلوم المتشعبة المتعددة .

شكرت للشيخ فضله وعلقت على اجابته بحمل متقطعة
من الاستحسان لا أذكر منها ساعة كتابة هذه السطور أكثر
 مما يأتى :

• أما صلاحية الجسم والعقل فهى عماد النظرية الأغريقية
وفلسفة القدماء فى اصول النظرية والتعليم ، فهى ليست بجديدة
ولا بقاصرة على الألمان دون سواهم وفى المثل (العقل السليم
فى الجسم السليم) . وأما حب النظام فلا غرو أن أسمع من
شيخ جليل تجرى فى عروقه الدماء البروسية ، وحفيد من عاصروا
فردريك الأكبر وبسمارك ومن شهدوا الحرب الكبرى التى
كادت تطغى فيها الروح الحرية الألمانية وما يتبعها من النظام
على العالم فتسوده .

وأما حب البحث والتدقيق مع التخصص الضيق فلا أدل

عليه اكثر مما ساهمت به العقول الألمانية الجبارة في جميع
نواحي العلوم والفنون والفلسفة والآداب مما أتجه العقل
البشرى خلال القرنين المنصرمين . واني كثيراً ما سمعت الانجليز
يقولون في وصفهم : (الألماني كالبعغل فأن هو سلك طريقا
انطلق فيه ، لا يريد أن يجهد نفسه ليعرف ما هو كائن في
الطريق الآخر . بل يسير الى الأمام لا يلوى على شيء ، يذلل ما
يعثره من الصعاب ، ويحاول الوصول جهد طاقته الى غايته
في صبر وجلد قلما يتصف بمثلها منافسوه من الأمم المجاورة . ،
بعد هذا وجدت ان الجلسة قد طالت وان ليس لي ان
أضيع من وقت الأسرة أكثر مما شغلت ، وخصوصا لأول مرة
فاستأذنت في الخروج . كنت ساعثد أشد الناس شوقا الى
زيارة إحدى الجامعات الألمانية لأقف بنفسى على ما فيها من
حياة ونظام حتى انى صرحت بذلك ، فتطوع على الفور « فرتز »
بأنه سيكلف نفسه الحضور الى فندقى المتواضع فى الصباح
ثم يصحبني الى بناء جامعة كيل التى هو أحد طلبتها .

يوم فى جامعة « كيل »

ما كان أشد دهشتى عندما طرق « فرتز » باب حجرتى
بالفندق فى الصباح الباكر حوالى الخامسة صباحا حتى ظننت

ان فى الأمر شيئاً لآتى لم أنتظره فى تلك الساعة .
اتجه « فرتز » نحوى فى خفة ونشاط تبدو عليه علامات
البشر والسرور وقال : « إنى أعتذر عن إزعاجك مبكراً » .
ولكنها فكرة ... !!! . انتصبت من الفراش قائماً ومددت
إليه يداً متساكلة وحاولت ابتسامة صناعية بانفراج الشفتين
وقلت فى تباطؤ ملؤه الكسل والخنول .

« لم تزعجنى بل شرقتنى كثيراً - أمسكت عن الكلام قليلاً
ثم واصلته - ولكن ما هى الفكرة ؟ »

قال : « عندما تركت منزلنا بالأمس أبديت لى رغبتك
فى زيارة الجامعة ، ففكرت فى أن نبدأ الزيارة ببدء الحياة
اليومية بالجامعة » - قلت فى دهشة وتعجب : « وأى حياة
فى الجامعة تبدأ قبل السادسة صباحاً » . قال : « أعندك شىء
من دقة الملاحظة ؟ وإذا كان كذلك ألم تلاحظ شيئاً فى
وجوه بعض الشبان الذين قابلتهم فى بلادنا ؟ قلت : أظن
أن لدى الشىء القليل فلقد لاحظت أن وجوه كثيرين من
شبابكم تكاد تكون مشوهة من كثرة ما فيها من أثر الجراح
بحوار الفم والانف وعلى الخدين ، حتى عجت مرة من رؤيتى
شاباً عليه أثر جرح يصل زاوية فمه بأذنه اليمنى .

قال : « أتريد أن تعرف السبب فى ذلك . ؟ » قلت :

• بكل فرح وسرور

قال على الفور : لهذا جئت اليك مبكراً . فان ماتراه من آثار الجروح في وجوه الشبان سببه المنازلة بينهم بالسيف . ولقد بدأ الطلبة الألمان مثل تلك المنازلات بعد أن انتهت الحرب الكبرى بمعاهدة «فرساي» التي حددت من جيشنا ووفرة عدده ؛ لم نعدم وسيلة لتخيرها حتى نحفظ بروحنا الحرية واستهتارنا بالآلام ، والتعود على منظر الدماء اذا سالت ، وتقوية روح الرجولة والشجاعة فينا .

وقع الاختيار على المنازلة بحمد السيف ، حتى أن طلبة الجامعة الواحدة انقسموا الى جمعيات عدة ، كل جمعية منها لها شعارها الخاص (عادة الوان القبعة) ولكل جمعية أسلحتها وطرق المبارزة التي تستحسنها حتى لقد انتشر ذلك النوع من « السبورت Sport » ، فكثرت الشكوى ، من كثرة عدد الجرحى ، وتشويه الوجوه ، فدخلت الحكومة باصدار قرار بمنعه . ولكن هيات أن يقف شباب الألمان الناهض مكتوفى الأيدى أمام قانون المنع ، ولكنهم بدل أن تكون المبارزة علناً وفي وقت العمل ، أصبحت المبارزات الآن في وقت الفراغ وفي أمكنة منعزلة يكاد لا يعرفها إلا رئيسا الفرقتين المتنازلتين . سأترك لك وصف المبارزة فسترى ذلك بنفسك إن قدر

لى أن أتمكن من إقناع رئيسي الفرقتين بالسماح لك بالمشاهدة .
فإن قانون كل جمعيات المبارزة يحرم على الأجنبي مهما
كانت جنسيته أن يحضرها .

قلت : « وكيف إذن ستمكن من دخولى وربما كان فى ذلك
إحراج لك ؟ »

قال « أنى عضو عامل ومجد فى إحدى الفرقتين المتبارزتين
اليوم ولى ، صلة صداقة متينة برئيسي الفرقتين وسأحاول جهد
طاقتى علنى أنجح . »

شكرت له فضله - لم يمض من الوقت أربعون دقيقة حتى
كنت ورفيقتى على باب موصد فى بناء منفرد من أبنية الجامعة .
دق « فرتز » الباب فارتفع صوت من الداخل من أنت ؟
فصرح فرتز باسمه ثم إستأذن عند مافتح له باب الغرفة ودخل .
وبعد برهة قصيرة خرج يصحبه شابان طويلتا القامة ، ضخما
الجسم ، قدمنى إليهما بأنهما رئيسا الفرقتين المتبارزتين قال
احدهما لى فى لطف ووداعة « أن قانون جمعيات المبارزة بالجامعة
لا يسمح لأجنبي أن يشهدها ولكن بالنسبة لمكانة « فرتز » عندنا
أرجو أن تعدنى بعدم إباحة ماترى من تفاصيل المبارزة . »
لهذا لا يمكننى أن أسجل على هذه الصفحات أكثر من أنى
رأيت فرسانا قد ملأهم الشباب قوة وجرأة فبدت على محياهم

خفة الحركة وسرعة الخاطر والاستهتار بالآلام - فكثيراً ما سالت
الدماء من وجوههم وهم لا يزالون يقتتلون ، يدافعون ثم يهجمون
من غير ان تظهر عليهم علامة من علامات التأثر أو الإعياء . حتى
ينادى بهم الحكم فيقفوا لتضمد لهم الجروح - لا بواسطة طبيب
ولكن أى شخص منهم يتقدم بعمل ذلك ، فلقد مارسه الجميع فترى
أحدهم فى خفة ونشاط يغسل الجرح ثم يضمده ، وفى بعض الأحيان
بخاط الجرح إن كان كبيراً . ومن الغريب - على طول مدة المباراة -
أتى لم أسمع تأوها بينما أصيب واحد من المتبارزين بجرح يصل فيه
بأذنه واضطروا لتضميده إلى استعمال « الخياطة » ولكنه لم يتألم .
فله در شبابهم وجعل منهم مثلاً حياً لشباب
الشرق يحتذيه ، إن قدر للشرق أن ينهض من سباته
العميق - فيأخذ شبابه عن أمثال هؤلاء ، الجرأة والشجاعة
والإقدام فلا يحفلون بخطر ، ولا يبالون بألم ، ولا يرضون
بذل ، يستبدلون نعومة العيش بخشونة ، والقناعة بما هم عليه من
حال ؛ بالطموح إلى ما تصبو إليه آمال الكرام ، فيضحون فى ذلك
السبيل بكل عزيز لديهم مسرفين مستهترين حتى يصلوا بأهمهم
إلى عزة وكرامة تليق بها وبمجدها القديم ، وحتى تحقق لهم الأيام
آمالهم الفتية عن طريق المثابرة والعمل ، مع التضحية وإنكار
الذات ، لا عن طريق الكسل والجبن والأنانية .

بعد المباراة - وكانت الساعة قد قاربت الثامنة صباحا - خرجت مع « فرتز » إلى ميدان الجامعة الذي يمتد على ميناء « كيل » ، فرأيت فريقا من الطالبات والطلبة ، تبدو على الجميع علامات الصحة والانشراح ، وهم يتأهبون لانزال زوارقهم في الماء وكلهم بلباس التجديف لافرق في ذلك الزي الأنيق بين فتاة وفتى . وبعد برهة كانت الثلاثة الزوارق معدة - كل منها يحمل عشرة : خمسة منهم أناث والخمسة الآخرون ذكور ، ثم بدأوا تمرين الصباح في التجديف ، فكنت ترى الزوارق تعدو في خفة وسرعة وأن هناك تجانسا في الحركة بين الجنسين لافرق بين فتاة وفتى . تركنا المكان وقد ملئت أعجاباً بتلك الروح الرياضية حيث مررنا بملاعب « التنس والجولف » وغيرها . والذي زادني إغتيابا أني رأيت المرأة تأخذ بنصيب معادل إن لم يكن أكثر قليلا مما يأخذه الرجل ، ولقد مهرت الفتاة الألمانية في جميع فنون الرياضة .

دخلت بناء الجامعة وقد بدأت الحياة اليومية تأخذ سيرها الطبيعي من الحركة والنشاط على أن ذلك لم يكن كثيرا لأن الوقت كان وقت عطلة صيفية ، والمحاضرات موقوفة ولكن الأبحاث لا تعرف عطلة صيف أو شتاء ، فمضى انغمس الباحث في نقطة يريد أن يستكشف منها ما غمض ، نسي نفسه ونسي كل شيء ما عدا

بحثه ، فهو في وقت انهماكه في بحثه لم يخلق إلا له ولا يعنيه من العالم إلا أن يحصل على نتيجة لذلك البحث ، وأن هو حصل عليها كانت هذه الفرصة عنده من أسعد أيام حياته .

طفت مع صديقي مبانى العلوم التى يهمنى أمرها والى أنا شغوف بها وبما جدّ فيها ، فتحدثت مع الكثيرين من علماءها والباحثين فيها وكان الجميع يستقبلنى بصدر رحب ووجه باش . يطلعوننى على ما أريد موضحين فى ذلك بوقتهم الثمين محتملين عناء الشرح . شكرت للجميع فضله . . وأنصرفنا .

رافقت صديقى إلى بناء « اتحاد الطلبة » وأول ما لفت نظرى جلوسهم جماعات ، لكل جماعة شارتها الخاصة من لباس الرأس إلى شريط يوضع على الصدر . وكان معظم الطلبة والطالبات ممن يدرسون الطب حيث يتحتم عليهم دخول امتحان فى القريب العاجل فهم يستعدون له .

قدمنى « فرنز » إلى جماعته وحاول كل قدر استطاعته أن يحادثنى بدوره حتى لا أشعر بالوحشة بينهم

جاء وقت الغذاء فجلسنا جميعاً على مائدة واحدة واتفق أن الشاب الذى جلس إلى جهتي اليسرى يجيد الانجليزية . فلما قدم إلينا الطعام : قال : أخاف أن هذا الغذاء ربما لا يعجبك . . ؟

قلت « بالعكس أنه لذيذ » . والحقيقة كانت خلاف ذلك

فلقد قلت ماقلت من باب المجاملة فقط - أما الغذاء فكان قوامه
« طبقاً كبيراً من البطاطس المسلوق وقطعة صغيرة من اللحم
لاتزيد عن أوقية أو اثنتين وبعض الخضار »

قال : « إنه لا يتحتم في إنجلترا على معظم الطلبة الألمان أن
يأكلوا مثل هذا الطعام » قلت : لا . ليست كثيرتهم »

قال : أن نحو ثمانين في كل مائة من الطلبة الألمان فقراء
وعليهم أن يكسبوا ما يعيشون به وبعض مصاريف تعليمهم .

وبالنسبة إلى حالة البلاد المالية ووجوب إنعاشها وجب علينا
جميعاً الاقتصاد - حتى أن من يكون منافي سعة من العيش ، يجتهد
كثيراً في أن يعيش عيشة الأغلبية وما توفر معه يكتب به للطلبة
الفقراء ، فما من شهر يمر إلا وحفلة سمر يقيمها هذا النادي باسم
« مساعده الطلبة الفقراء » وتوزع تذاكرها على الطلبة الاغنياء
ومن أراد ذلك من الأهالي . قلت - « وكم تدفعون في مثل
هذه الأكلة » .

قال : ستين فنش (ثلاثة قروش صاغ)

قلت : (وقد استعرضت ذاكرتي الحياة الانجليزية وكيف أن
الطلبة هناك في رغد من العيش يتمتعون بما لذ وطاب من
المأكل والمشرب والملبس) - إنها لهمة منكم تشكر ، وحسنة
سيخلدها لكم الوطن وتحفظها لكم الأجيال القادمة .

فأنتم جميعاً تضحون لخير أبنائكم وفي سبيل الوطن .
قال : إننا جميعاً نشعر بذلك الواجب المقدس وهو ألمانيا
فوق الجميع ، وتحت ضوء هذه العقيدة نعمل .
قلت : « بارك الله فيكم وفي الوطن الذى هو سعادتكم ومجده
غاية ما ترومون ثمرة لكدم وجدكم وتقشفكم ،
- تنهدت بعدها تنهداً عميقاً من قلب كله لوعة وحسرة ، وكنت
أود أن يكون لمصر نصيب من أبنائها كالذين أنا بينهم الآن
أحادثهم ، ولا هم لهم إلا رفعة وطنهم وسعادته .

بين « برلين » و « ميونخ »

برلين بلد عظيم يستحق عن جدارة أن يكون عاصمة بلاد
الريخ العظيمة فهو غنى فى كل شىء . غنى بمتاحفه المتعددة التى
تحتوى آثار القدم والحديث والتى تتمثل فيها الصور الحقيقية
لنشوء معظم الأشياء - وارتقاؤها ، وكيف تطورت حتى وصلت
إلى الدرجة التى صارت إليها الآن ، فمتحف الفنون والصناعات
واسع الأرجاء ، منامى الأطراف ، به جميع ما وصلت إليه المدينة
والحضارة فى عصورها المختلفة وفى معظم نواحيها وكيف

أن صناعة معينة ارتقى بها العقل البشرى فأخرجها من فكرة إلى شيء محسوس وما زال يتعدها بالبحث والتجربة حتى ظهرت في ثوبها الحالى .

ونظرة واحدة إلى ذلك البناء الضخم الذى يقع فى أكبر شوارع العاصمة « Unter den Linden » والمعد متحفاً للأسلحة وطرق الهجوم والدفاع ، يُرى الناظر كيف تطورت وارتقت طرق الحرب من القوس والنشاب ، إلى السيف والدرع ، ثم إلى استعمال رصاص البنادق ، إلى المدافع بأنواعها ، ثم إلى القنابل والغازات الخائفة ، إلى غير هذا مما وصلت إليه طرق التدمير والدفاع . غنية برلين ، وبوتسدام وهى إحدى ضواحيها - بقصور آل « هوهن اتسليرن » وما فيها من آيات الفن ، وجمال فى النقش والبناء ، وبذخ فى الآثار . غنية برلين بدور العلم فيها وتعدها فهى تحوى كنوزاً من العلم والفن والفلسفة والاجتماع .

جميلة برلين بمبانيها المتناسقة ، وقصورها الشاهقة ، وشوارعها الواسعة النظيفة ، وميادينها الفسحة وما تحويه من الحدائق الغناء ، ودور التمثيل والسينما الناطقة ، ومختلف أنواع الملاهى والمسرات ، وبالجملة فإن أهل برلين لم يقصروا فى أن تكون مدينتهم نموذجاً للحضارة الغربية وما وصلت اليه فى كل ناحية من نواحيها ،

فهى بحق ليست عاصمة الريخ فحسب ، بل عروس أوروبا الوسطى وباريسها فى الجمال والتناسق ، وهى أكثر شهاً فيها بمركز المنخ وما يتصل به من الأعصاب للجسم . فما أكثر بيوتاتها المالية ومصارفها وشركاتها الصناعية الكبرى . والناظر إلى برلين نظرة سطحية إلى ظاهر الأشياء لا يمكن أن يحسول بخاطره أن بالبلاد أزمة أو عسراً ، أو أن فى الصناعة بطالة أو كساداً ، لأن دولاب الحركة فى مختلف الأعمال لم يقف ، ولا تزال المنتجات الزراعية والصناعية فى تبادل مستمر .

مكثت برلين خمسة عشر يوماً أتقل بين متاحفها وأحاول أن أقف على ما بالمدينة العظيمة من علم وعمل وحياة اجتماعية ، حتى نلت من ذلك مقداراً لا بأس به وكدت أنسى نفسى أو أتناساها لأستزيد من تلك الحياة الحققة إلا أن الوقت عندى كان محدوداً وقد تقدّ ما خصصته لزيارتها .

اضطرت إلى أن أرحل على مضض وأن أغادرها إلى جنوب الريخ متجولاً حتى وصلت إلى مقاطعة « بافاريا » واستقر بى المقام فى عاصمتها « ميونخ » وهى بلدة جميلة ، يرجع تاريخها إلى القرن الثامن ، وتجمع بين القديم والحديث : ففى مبانيها الضخمة ومنشآنها العديدة يرى اختلاف القرن والذوق باختلاف العصر والوقت ؛ وربما كانت المنشآت

الدينية - كما هي الحال في معظم ممالك العالم المعمورة - هي أوضح صورة لتقدم الفن في مختلف عصوره - وكيف تطور ذلك وتأثر بكل عامل جديد طارىء ، لافرق في ذلك بين أن يكون هذا العامل عن عقيدة دينية ، أو إحساس أنتجه التفكير البشرى وقبله القوم ، أو عن عرف أو تقليد . ولا بد أن أدون في هذه المذكرات عظم فضل الدين على الفن ، وكلما تجولت في الأرض زدت يقيناً بذلك حتى كدت أن أغالى في التقدير بظني ساعة ما ، ان الفن هو وليد العقيدة الدينية ، لأن الفن صورة نفسية يخرجها للناس أفراد قلائل من بينهم قد وهبتهم الطبيعة أكثر حساسية ، فان هم نحتوا أو نقشوا أو صمموا أو صوروا ، كان ذلك مرآة صافية لاساسهم ، ولا يمكن أن يكون هناك إحساس من غير عقيدة - وعلى هذا تكون العقيدة مصدر الفن وأصله .

ولما كانت جميع عصور التاريخ التي وصل إلينا شيء من أخبارها دائماً ملأى بعقائد الأديان المختلفة ، وكان الناس أكثر تمسكاً بأديانهم مهما كانت قيمة هذه الأديان في نظر غيرهم . فمن المرجح أن يكون الدين هو أهم عامل في تكوين الفن ونشأته . ولا أدل على ذلك من التنقيب والبحث في مختلف جهات المعمورة عن الآثار القديمة التي ملئت بها

متاحف لا تعد لها ، ونجد أن معظمها يتعلق بالعقيدة الدينية أو صورة لها منقوشة أو منحوتة على الآنية والحجر . يشهد أيضاً بذلك تليد تاريخ الفن وطالبه حيث يجد مورداً خصباً ومنبعاً لا ينضب معينه في الهياكل والمعابد ، والكنائس والمساجد .

وربما كانت « ميونخ » من أعرق البلاد الألمانية لحفظ تاريخ الفن المسيحي في كنائسها المتعددة التي بدأت بكنيسة « Frauen Kirche » على الطراز القوطي « Gothic » ، والتي يرجع عهد تأسيسها إلى عام ١٤٦٨ ميلادية - فهي بحق بناء عظيم ضخم يُدخل في نفسك الرهبة والخشوع . ثم هناك كثير من الأطرزة القديمة والحديثة ممثلة ، كطراز عهد التجديد « Renaissance » ، وعهد الرومان « Romanich » ، والطراز الباروكي « Baroque Style » وغيرها وغيرها .

ولهذا تجد ميونخ صفحة تاريخية مجيدة ، عدا ما حبتها الطبيعة من موقع جغرافي جميل ، تحيط بها المرتفعات والمنخفضات وبحوارها تمتد سلسلة من التلال والهضاب ، وعلى مقربة منها تقع جبال الألب - فإن الزائر لا يكاد يترك المدينة حتى تملك عليه الطبيعة جميع مشاعره بجبالها الفاتن الممثل في ألوان الخضرة المتعددة التي لا قدرة لى على وصفها مهما أوتيت

من قوة الايضاح والبيان ، ومنظر الهضاب والمنخفضات ،
والماء الفضى الذى ينحدر بين الصخور ، والطيور التى تنتقل
بين أشجار الصنوبر وهى سعيدة تغرد النغبات الموسيقية
الشجية - فما أكثر الجمال فى تلك البقاع النادرة وما أكثر
وجوهه ونواحيه . وما أسعد النفس التى وهبتها الطبيعة حساسية
لحبه ، وما أسرع تلك النفس الى التفانى فى عشقه ، والتمتع
بأسرار وحيه وجلاله .

ومثل ذلك الوسط الطبيعي لا بد أن يؤثر فى تكوين
الشعب الذى ينمو فيه - فان كان من آثار البادية جفاف
الأخلاق وجهود القوم وخشونتهم - فان من آثار هذا
الوسط الجميل أن القوم هما نزل بهم من الضيق ، وما حل
بهم من الكرب والحرب ، فهم فرحون طربون تمتلئ وجوههم
دائماً بابتسامات طيبة لا تكلف فيها ولا هى صناعة مبتذلة ،
وهم بالسليقة موسيقيون فما أكثر الأصوات المطربة والغناء
الشجي فى الشوارع والطرقات العامة والميادين وما
أسعدهم فى المساء حينما يجلسون يحسبون شراب « البيرة »
رجالاً ونساء وأطفالاً وقد امتزجت الموسيقى بدمائهم ،
فلا تكاد تعزف حتى يرددوها القوم جميعاً ، لا فرق بين صغيرهم
وكبيرهم ، ثم هم بعد ذلك يلهون ساعة أو بعض الساعة فى

الرقص والغناء لا فرق بين ذكر في ذلك أو أنثى... وههات
أن تستولى على أحدهم أو إحداهن الشهوة النفسية الجامحة ،
فإن ذلك على ما أعتقد اختلاط عادى ألفه القوم ، وقوامه
الشرف والعفة .

في صباح اليوم التالى لوصولى تلك المدينة الأثرية ،
وليت وجهى شطر مكتب الشركة البريطانية للسياح ، كوكس ،
والتي انتشرت مكاتبها وفروعها في جميع أنحاء المعمورة لما
بلغته من عظيم الشهرة في الدقة والأمانة في العمل ، مع الانحياز
والسرعة في المعاملة ، حتى أصبحت بحق أكبر شركات العالم
للسياحة - حيث كنت قد أوصيت بتحويل خطاباتى إلى ذلك
المكتب وكنت متعطشاً جداً لسماع أخبار أخواني ، ولقد
مضت مدة من الزمن لم أسمع فيها شيئاً عنهم .

انى شغوف بأن أحاول امتحان ذاكرتى من آن لآخر
ولقد عهدت فيها ضعفاً - طالما كان سبباً في تأنيبي لنفسى
وعدم ثقتى برواية حادث قدم عهده ، أو بأن أتذكر الشيء
الذى رأيت أو سمعت أو قرأت في مناسبتة .

استعرضت الخطوط التى على ظروف الخطابات الواردة
إلى محاولاً أن أعرف المرسل فوجدت بينها خطاباً من « كلير ،
حيث كنت تعودت قراءة كتابتها كثيراً ، وآخر من

ليفربول ، ولكن ليس من كثير جال بخاطري أفكار
سريعة وأشخاص عدة ، ورددت في نفسي كثيراً من الأسئلة .
ولكن الشيء الوحيد الذى كدت أن أجزم به أنى قرأت
مثل هذا الخط مرة أو بعض مرات ، وربما كان هو . . . !!
ولكن خط من هو ، أو من هى . . . ؟ لا أدرى . . . !!
لم أهتمد إلى جواب قاطع من نفسى - وبحركة سريعة كان
الخطاب فى جيبى الأيمن .

بعد أن تركت المكان بدأت بقراءة الخطابات التى أعرف
أن موضوعها جاف والتى ظننت أنها لا تأخذ منى وقتاً طويلاً
حيث كنت على عجل ، حتى لم يبق منها سوى خطاب « كلير »
الذى أضفته إلى الخطاب المجهول لفرصة تتسع لقراءتهما .

بعد أن أمضيت اليوم مع بعض السائحين من أوروبا الغربية
والأمريكان متجولين فى إحدى سيارات « كوكس » لمشاهدة
أهم ما هو جدير بالزيارة فى المدينة وضواحيها ، رجعت
إلى فندقى متعباً - وما كاد يستقر فى المقام حتى استلقيت على
الفراش ، ولكنى لم أنس خطاب « كلير » ، ففضضت غلافه
فى حينه ، وكان أهم ما جاء به :

أتمنى لك رحلة سعيدة موفقة حتى ترجع إلينا فتقص
علينا أهم ما يعلق بذاكرتك من أوجه حياة الألمان المختلفة ،

حياة الكد والعمل والفلسفة والاجتماع فهي الأمة التي أنجبت
« حيتا » ، و « كانت » ، و « ماركس » ، وغيرهم . .
وأخيراً « أنشتين » ، تلك الأمة التي دوخت العالم طوال أربع
سنوات وكلفت الانسانية أكثر من عشرة ملايين قتلى وضعفها
جرحى - تعمق في حياتها الاجتماعية والخلقية ما أمكنك ذلك .
ولكنى لن أطلب منك أن تعرف الشيء الكثير عن
تلك الحياة المعقدة ؛ والتي تزيدنا الأيام وتقدم العلوم
والصناعات ، والتنافس تارة والخوف تارة أخرى تعقداً - فإني لك
هذا ووقتك محدود جداً ومعرفتك باللغة قاصرة على بعض كلمات .
ولكن بالرغم من هذا أتعشم أن تأخذ من حياتهم بمقدار ،
كما آمل أن يكون قد صادفك جو كله شمس ساطعة ، وسماء
صافية ، حتى تتمتع بجمال « الريح » الطبيعي الذي طالما قرأت
عنه الشيء الكثير ووددت لو كنت بصحبتك لننعم بذلك
الجمال سوياً .

أما الجوع عندنا فتارة بمطر كما عهدته ، وتارة ملبد بالغيوم
الكثيفة ، وإن كشفت الشمس عن نفسها ذلك الغيم لستممتع
برؤيتها ، فلا يمضى عليها وقت طويل حتى تحتجب .

انا لا نزال كما هي العادة في كل عام نمنى النفس بصيف
حقيقي لا فصل فيه الأمطار والغيوم والأعاصير - وقد قارب

صيف هذا العام الانتهاء ولم يأت ذلك الصيف المنتظر بعد . . . !
وبالرغم من رداءة الجو فلقد مارست الطيران حيث كنت
قد أخبرتك بذلك - قطعت شرطاً فيه لا يستهان به ، ولقد
حلفت منفردة أول أمس ، وأعتقد أن في الطيران لذة
لا يمكن أن تعادل ؛ فأنت في الهواء تشعر بمحاكاة الملائكة
(وطالما صورهم الفنانون بآدميين ذوي أجنحة) ، أو على
الأقل تشعر بأنك وسط بين هؤلاء وهؤلاء وقد ارتفعت بك
طائرتك عن الأرض ومن فيها وما فيها من خير أو شر إلى
طبقات الأثير التي لم يلوثها الإنسان كثيراً بمطامطعه
وشروبه وكنت أود من قرارة نفسي أن أتخلص من
الأرض وأنا لأزال على قيد الحياة لأمتع النفس بعالم
آخر ولكن أنى لي ذلك . . . ! وأنت تعلم الأرض
وجاذبيتها وكل ما عليها ملك لها ، حتى يأذن الله بتغلب الإنسان
على تلك الجاذبية فيجرها إلى غيرها من الأجرام ، وينتقل حراً
بينها كما هي حاله الآن يتنقل من بلد إلى بلد ، ولن يكون
في تنقلاته عرضة للتفتيش ، وفحص جواز السفر ، واضطراره
لاستعمال الترجمان أو الإشارات لعدم فهمه اللغة . . .
أو أن يعترضه عائق من العوائق التي كثيراً ما تعترض السائح
في هذه الأيام .

ان المعلم الذى يتولى تدريبي على الطيران يشجعنى كثيراً
ولقد أظهر أكثر من مرة رضاه عما وصلت إليه حالتى .
وثق أنتى سأصل الى شىء مرضى فى هذا الفن مادامت هناك
الرغبة الصادقة من نفسى وتفانى فى حب تعلمه . وربما كان
هناك استعداد طبيعى يسمح لى بالنبوغ فيه .

ليس لدى أخبار كثيرة تهملك غير أنى علاوة على تعلبى
الطيران فأنى أقرأ كثيراً ، وربما بلغ ذلك خمس ساعات
فى اليوم والرواية التى أقرأها الآن هى « Faraway » لبرستلى
مؤلف رواية الرفاق الطيبين « Good Companions »
التى أخالك قد قرأتها .

صحى جيدة وأتمنى أن تكون صحتك كذلك . ولقد زارتنى
« مارى » بصحبة « كارل » مرة وهما على أحسن مايرام من
الائتلاف

أعتذر أن أنا لم أطل فى الكتابة إليك فأختم خطابى هذا
بسرعة لأن لدى ميعاداً مضروباً لألعب فيه « التنس » ولقد
بدت على الجو علامات التحسن . فسأنتهز الفرصة لذلك
وختاماً إلى اللقاء

طويت الخطاب ثم تقلبت من جنب لآخر وأنا أردد
فى نفسى ... نعم إلى اللقاء إلى اللقاء ... « يا كبير »

ما أسعد اللحظة التي تعرفت بك فيها ، فأنت خير مثل لما
يمكن أن تتحلى به الفتاة من دماثة الأخلاق مع العفة والطهر ،
وبجانب ذلك الشيء الكثير من الشجاعة والحزم وقوة الإرادة
وحب الاستطلاع والتفانى فى خدمة ماتعدينه واجباً
عليك سواء نحو نفسك أو غيرك أو وطنك . أنت الفتاة
التي أتطلع إلى أن أراها فى مصر خاصة وفى الشرق عامة
أنت الفتاة التي جمعت صفات الأنوثة مع الاستقلال الذاتى
ولم تنس أن تكونى لنفسك الشخصية التي تحبها فتضعين نفسك
دائماً فى المكان الذى يليق بك

صرت على هذا المنوال فى بحر من التفكير حتى أخذتني
سنة من النوم ، وما أن استيقظت منها حتى خطر لى أن لدى
خطاباً بجيبى الأيمن لم أقرأه بعد - بحركة بطيئة مددت يدي
فى جيبى وأخرجت الخطاب ففضضته وتصفحته بنظري فى
لحظة حتى وصلت إلى آخره فأذا الأَمْضاء « كاتلين »
لم أكّد أصدق لأول وهلة أن « كاتلين » تكتب إلى
وما هى المناسبة . . . ؟ نهضت من فراشى مسرعاً ثم عدت
عدوا سريعاً نحو النافذة ففتحها ، ولا بد أن تكون هذه اللحظة
على قصرها من أدق اللحظات التي يصعب على الإنسان وصفها
ففيها تمر أفكار . . . أفكار سريعة بخاطرهِ من البرق بعضها يسر

من أن هناك أملاً ربما يتحقق أو حُباً وغراماً ربما يكون نصيبه
تبادل العاطفة أو أو الخ .

وبعضها يدخل على النفس اليأس والحزن من أن هناك
كلمة وداع لمن تحب ... أو أحباط الرجاء لأمنية طالما منيت
نفسك بها ... أو ما هو نحو ذلك .

تمالكك نفسى بعد أن هدأت أعصابى قليلا وبدأت قراءة
الكتاب فإذا هو ما يأتى :-

عزيزى :

مضت مدة طويلة منذ أن غادرت ليفربول ولم أسمع عنك
فيها شيئاً . ربما لم يكن لك فى هذا ذنب وإنما هو ذنبى
كما أعتقد لآتى لم أطلب منك الكتابة الى ، ولقد عهدت فيك
المحافظة الشديدة على شعورى وإحساسى ، وربما كان الخجل
من أهم الأسباب التى جعلتك لا تكتب الى قبل أن
أذن لك بذلك .

أتمنى أن تكون ممتلئاً صحة ونشاطاً وان تكون ممتعاً
برحلتك الأوروبية أحسن التمتع وكنت أود أن أكون فيها
بصحبتك . ماذا أنت فاعل ياترى ولقد فهمت منك قبل قيامك
أنك ستسافر وحيداً وأن معرفتك باللغة الألمانية محدودة ، هذا
فضلا عن أنك قد ذكرت أنك لا تعرف أحداً فى البلاد التى

تنوى زيارتها...؟

أتعشم أن ترجع إلينا وقد أفدت من الرحلة بقدر ما أنفقته فيها من وقت ومال وجهد - ولكنى أطلب منك أن تحاول الاحتفاظ بذكرىات مازوره من الأماكن وما يقع عليه نظرك أو يناقشه عقلك فإن مثل هذه الرحلة فرصة سعيدة... وأنت تعلم أن الفرص السعيدة فى الحياة قليلة... وربما كانت تلك فلسفتك فى الحياة كما ذكرت لى من حين لآخر .

أما صحتى فجيدة أتحين الفرص من آن لآخر فى الفترات التى يتحسن فيها جونا القلب الذى تعرفه ، فأخرج للعب « التنس » ، أو « الجولف » تارة ، أو « العوم » تارة أخرى . ولقد سافرت يوم الأحد الماضى مع فريق كبير من أعضاء نادينا (الكلوب) إلى شمال « ويلز » حيث سرنا على الأقدام بين صعود تلالها وهبوط فى وديانها - كما تعرف طبيعة الأرض هناك - أكثر من ستة عشر ميلا ، ولكنى متعت نفسى أحسن تمتع وكان الجو جميلا ولون الخضرة فى الوديان وعلى التلال فاتن ساحر . اذا كنت لاتزال تذكر كلبتى الصغيرة « بيجى » ، فهى فى صحة جيدة تسرح وتمرح فى البيت والحديقة إلا أنها فى الأيام الأخيرة أظهرت شيئا من عدم الارتياح لاقتنائنا منافسا آخر لها - وهو طير جميل «عصفور كنارى» ذو ألوان ذهبية بديعة. وفى الصباح

يغرد تغريداً شجياً ، إلا أنتى أظن أنه لن يمضى وقت طويل حتى تألفه . ييجى . . أما أخبارى الخاصة فليس فيها شيء جديد غير أنى أشعر ببعض الفراغ حول منذ سافرت فأعتقد أن قلوبنا قد تآلفت بعض التألف ، ولما تنطق بذلك السنتنا بعد . فإن ما فيك من التحفظ والحياء ، وما عندى من المحافظة والامتناع كان كفيلاً بعقد السنتنا ، ولكن طالما خانتك نظراتك التى كثيراً ما كشفت لى عما تكنه من عاطفة وما يخفق به قلبك من حب . أريد أن أصدقك الخبر فأقول : أنتى فى أول معرفتك لم أفكر فيك كثيراً بل عددتك رفيقاً لا صديقاً ، ولا بأس من أن أستصحبك الى مكان لنلهم فيه ساعة أو بعض ساعة مادمت قد وثقت من أخلاقك ومبلغ شجاعته فى بث الحب والغرام . . ! ولكن أخيراً قبيل سفرك تملكنى شيء لا أعرفه فأصبح يقرب بين نفسى ونفسك فعمدت إلى أن أتجاهله واتجاهله . . ولكن سلطانه قاهر . ربما لاحظت فى الأيام الأخيرة قبل سفرك أنك اذا نظرت الى تلك النظرة التى تفيض بعواطف قلبك والتى كثيراً ما نجاهلتها ولم أعرها اهتماما كبيراً ، كنت أغض النظر عنك وألتفت يمنة أو يسرة أو إلى الخلف لئلا تخوننى عواطفى فأبادلك مثلها وأحمر لها خجلًا .

لم أعد أستطيع مغالطة نفسى ، فاسمح لى أن أكشف عن نفسك

ونفسى الحجاب وأن نواجه الحقيقة بشيء من الشجاعة النفسية ،
ومتى كان إظهار العواطف جريمة فى نظر المنصفين من الناس ؟ .
وفرضاً إذا تغالى بعضهم وعدّها خارجة عن العرف
(والأتيكيت) - فليعلموا أن تلك هى الحياة وذلك هو سرها .
لم أتمه من تلاوة هذا الخطاب حتى شعرت بفرح لا يعادله
فرح ، وسرعان ما تملكتنى نشوة من السرور سلمت نفسى إليها
برهة من الزمن ، وقف فى أثنائها تفكيرى ، وتحدّرت فيها أعصابى
حتى الثمالة ، فمرت تلك الفترة من الزمن وكأنى بين حلم لذيد
ويقظة حلوة ملائكية هادئة .

لقد قرأت شيئاً ليس بالقليل من قصص الحب واساطير
الغرام ، كان يخيّل إلى أن فى بعضها شيئاً من المغالاة
استمده كاتبوه من الخيال والتصوير ، ولكنى الآن قد آمنت بكل
ما سمعت وقرأت فى سبيل الحب ومن أجل الحب .

كان قلبى قبل أن أتعرف بكاتلين أشبه شيء بتربة عذراء ،
ضن عليها الناس أو غفلوا عنها ولم يتعهدوها بالزرع والري
ليجنوا ثمارها ، وامتعوا أنفسهم بنضارة زرعها ووارف ظلها ، وإذا
مانبت فيها نبات وذلك حالها ، لا يلبث أن يصبح هشياً
تذروه الرياح .

تلك كانت حالة قلبى حتى وصلت إليه بذور حبك

فوجدت منه أرضاً خصبة تعهدتها من جانبي بكل ما لدي
من إحساس وشعور ، ومما خلفته في نظراتك من شوق وحنان .
وأما أنت يا كاتلين فلم تضي على هذا الغرس الطيب بالعطف
المتبادل والحنو الذي أنت له أهل . . . وأخيراً أنت تختمين
خطابك إلى مشعرة العالم أجمع أن هذه هي الحياة ، وتلك سبتها ،
ولست بخائفة أن تكشفني عن نفسي الحجاب . . . !

يعلم الله أن نبات حبك قد نما وترعرع حتى ملأ كل
فراغ في قلبي ، فملك على مشاعري وصرت لا أرى نور الحياة
إلا من عينيك ، ولا هدوءها وسلامها إلا بجانبك .

كنت دائماً أتردد في مكاشفتك بما في نفسي رحمة بها
وبقلبي الذي لم أعد أستطيع القول بأنني صاحبه ومسيره
حسب ما أحب وأرى - فلقد ملكت منه الشيء الكثير ولم
تتركني لي فيه إلا النذر اليسير - فهو الآن ملك لك
وله أن يطرب ماشاء الطرب وأن ينعم من الحياة بما شاء من
النعم . فلا خوف عليه إذن بعد قراءة خطابك من أن تتذكرى
له بعد أن يظهر ما يكن لك من حب وغرام ، وتقابليه
بالسخرية والاستهتار فتحبسي عنه ماء عطفك وسلسيل
حبك ، فتجف وريقات ذلك الغرس الطيب وتمتد إليه يد
الذبول فتسوقه إلى طريق الفناء وهو لا يزال كما تعرفين في ريعانه

ولما تجنى بعد ثمرة له

نعم . ما أسعد الحياة بجانبك وما أسعدنى بحبك فان هذه اللحظة التى تعترفين لى فيها بتبادل العاطفة بالعاطفة ، وخفقان القلب بمثله ، لهى عندى خير من الدهر كله ، ولئن - لا قدر الله - سلبتنى أيامى الحاضرة أو المستقبل شـطراً من السعادة أو كلها ، فستظل تلك اللحظة وذلك الخطاب مبعث سعادة أبدية ، ومصباحاً أستضيء به وأهتدى كلما أظلمت الدنيا .

إننى حلت بحبك كثيراً ، وكان حلماً لذيذاً أعلل به النفس فى الوحدة والانفراد ، ولكنى قلما فكرت فى أن لهذا الحلم من تحقيق ، أو أن هناك سيلاً إلى أن تفتن عادة حسناء مثلك تحمل روحاً طيبة بمثللى وليس فى شىء من الحسن أو الجمال يأسر قلوب الحسان - ولكن شئت الأقدار وأصبح المستحيل بالأمس ممكناً اليوم - وشئت العناية الإلهية أن نرتشف من كأس الحب سـوياً ، وأن يتحقق لى أن حبك الذى طالما حسبته سراياً هو فى الحقيقة ماء ، وأنت تعلمين أن الماء مادة فلا سبيل الآن إلى فنائها من عالم الوجود ، وربما تحولت من وجه إلى وجه ولكن جوهرها ثابت لن يفنى .

العودة

كان خط سيرى الذى رسمته قبيل البدء فى هذه الرحلة الأوروبية يتسع لزيارات أخرى وكنت قد أعددت لذلك العدة من الوقت والمال إلا أن خطاب كاتلين زاد فى شعورى بالوحدة ، وأصبحت لا أرى فيمن حولى من آنس به أو أستأنس ، ولا أريد أن أجهد النفس بتعرف جديد ، أو تقرب من شأنه أن يفسد تلك الوحدة ، ولقد انحصرت فى نظرى حينئذ لذة المجتمع والتمتع بما عندى من وقت فراغ عند ما أكون بقرب كاتلين فى شخصها بل وفى خيالها ، ولست أغالى إن قلت أن مجرد التفكير فى أنى أعيش فى البلد الذى تسكن فيه سـلوة تطرح عن نفسى كل ضجر وعناء .

على هذا مرت أيام قلائل يزداد فيهما الشوق إلى اللقاء ازدياداً مضطرباً فأردت أن أشفق على نفسى راحة بها وبحسمى الذى أضناه التفكير والسهاد فقررت العودة على عجل ، ولا يزال لدى ثلاثة أسابيع ولما تمض بعد .

أيام السفر طويلة وساعاتها جد بطيئة تدخل على النفس

السأم والضجر ، وخصوصاً على من يكون وحيداً مثلي ،
فتارة أكون في ديوان بمفردي ، وأخرى أكون بصحبة ،
فإن هم تحدثوا أو ضحكوا فغالباً لا يكون لي علم بحديثهم ، ولست
أدرى سرفكاهنهم لأنى - أولاً ، لا أعرف من اللغة كثيراً ،
وثانياً لست أود أن أنصت لحديث لا يوجه إلى مهما قرب
المتحدثون مني .

كنت تارة أحاول النوم في مظهر من الشاؤب والكسل
وإغماض الجفون عمداً ، ولكنى قلما ظفرت به ، وتارة أخرى
أسرح الطرف من نافذة القطار فأمر بنظري مرّاً سريعاً على
الوديان والتلال والمنخفضات والمرتفعات ، التي تكسوها
الخضرة الناضرة ، وطوراً كنت أطلق لنفسي
عنان التفكير فيما حوّل من خلق وخلق وما وصلت اليه
حضارة الغرب من تقدم وعمران ، وكيف بنى ذلك الصرح
الشامخ على أنقاض حضارات متعددة أبلاها الزمن ، وقضت
عليها الأيام .

مجهود الجبابة المتواصل على مضي الأجيال الذين لم يعرفوا
المستحيل ، بل هناك سابقة أنكار وجود الكلمة نفسها في
القاموس : فاستهزؤوا بالحياة ولم يقنعوا بما لديهم من طرقها
ووسائلها . فضحوا بالغالى الثمين واستلأوا كل صعب وشاق

فى سبيل الوصول إلى غاياتهم ، حتى إذا ما تجمعت تلك الجهود وكلها فى سبيل إسعاد البشر ورفاهيته أصبحت الحياة حلوة لذينة وأصبح لها قيمتها .

ولما كانت سعادة البشر ، (ولو فى دائرة محدودة) هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية فإن موطن تلك الحضارة ومنشأها وهى القارة الأوربية ، مصدر النور والعرفان ، والى طالما نفذت أشعتها إلى المجاهل والغابات والأدغال ، فاستضاءت بنورها ، ونهلت من منهايا حتى نسجت على منوالها ، فبعد أن كان يعيش أهلها أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان سهلت لهم الآن سبل الحياة الحققة وما فيها من سعادة ونعيم . وما خلق الإنسان ليرضى بالوجود فى أى حالة تضعه فيها ظروف الوسط الذى ولد به دون أن يفكر فيها حواليه . لكنه خلق ليحاول أن يعيش ، وعليه أن يحاول معرفة ما فى هذه الحياة من أسرار غامضة ، وحقائق مبهمة ، وما فيها من لذة وألم ، وبذلك تلذ له أيام حياته فيحرص على كل لحظة منها مهما قصرت . والذى يدهشنى كيف أن الشرق المعمور بمئات الملايين من الخلق والذى نبتت فيه بذور حضارات عدة بعضها أئنيع وأثمر ؛ قد رضى بحالته الراهنة فلم يطرأ عليها تغيير جوهرى منذ مئات خلت من السنين .

أخذته سنة حتى أغرق في نوم عميق ، وأصبحت حالته
حالة جمود فلم يعد يقدر قيمة الحياة مئات الألوف من سكانه ،
وليست الحياة بينهم سوى الرضى والقناعة بالوجود
والتمسك بالقديم وما خلفه لهم الأجداد الغابرون . لم يع الشرق
وأهله حتى يواصلوا التفكير فى تخفيف عبء الحياة والتقدم
بوسائلها ، والنهوض بها من ذلك الدرك الحيواني الذى يعيشون
فيه ، فأن سر الكون نشوؤه وتطوره على نحو ما جرى
عليه الغرب .

وأخيراً شاءت العناية الإلهية للشرق أن يتحرك ، فاستيقظ
متثابراً وقد طال على نومه الأمد ونظر فيما آلت إليه حاله -
فوجد أن الفضل كل الفضل فى يقضته يرجع إلى امتداد يد
استغلال الغرب إلى جميع نواحي حياته العمرانية والاجتماعية ،
والتي فى كثير من الأحيان قبضت قبضة حديدية على موارده .
أهزئت لذلك عزة الشرق وصار يصول ويجول بالقول
على من لا يسمعه ، ويكثر فى الكلام عن كرم محتده وتاريخه
القديم وعمما قدم للإنسانية من خير ، وما خلف من تراث ،
إلا أن السهم قد نفذ إلى الصميم وأصبح لا يجدى معه القول ،
وضربت على أممه الوصاية طوعاً أو كرهاً . فيجب على
الشرق وتلك حاله أن يقبل هذه الحقيقة مهما كان فيها من

جرح لعزته ، وتعريض بتاريخه ، وليعلم أن الغرب محق فيما يسعى إليه - فهو أولا يرى سعادة أهله وبنيه الذين فكروا فعملوا وضخوا ولا بد أن يكافئوا ، ثم يرى تقدم الإنسانية ثانيا .

لا سبيل للشرق إلى استجداء رحمة الغرب ، وليعلم أن الفرصة كانت لديه قبل أن تصل إلى الغرب ، وأهمها تمر فضاعت ، فمهما قدم من ندم وأعذار فلا عطف عليه ولا شفقة . وإنما السبيل الوحيد هو أن ينهض الشرق نهضة عملية علمية لا كلامية خيالية جوفاء ، ويوحّد صفوفه ثم يحاول محاولة جدية قطع ذلك الطريق الطويل المملوء بالمتاعب والمشاق والذي يفصل بينه وبين منافسة الغرب . عليه أن يستهين بكل ما يقوم أمامه من صعاب ، وبكل تضحية مهما عزت وغلت حتى يسترخص الدماء والمال والأرواح في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة . فإذا قيس الله له النجاح ووصل إلى ما بلغه منافسه من الرقي والعلم والعمل - فحينئذ فقط يتكلم مع أخيه الغرب بلغة النظير للنظير ، ويقف أمامه موقف المساواة في كل شيء ، ولن تكون هناك قوة في الوجود يمكنها أن تحول دون ذلك . فأنا نرى اليوم أن إرادة الشعوب القادرة محترمة ، فما بالكم إذا كانت هذه الإرادة تطلب حقا لها قد غفلت عنه ردحا من الزمن لتسترد به عزنها ، وتواصل حياتها تحت

الشمس كريمة عزيزة .

ولكن كيف السبيل لمصر العزيزة حتى تنهض وتساهم
بنصيبها في نهضة الشرق السامية ؟ وكيف وعلى أى وجه تتمكن
من أن تسمع صوتها الحقيقى جارائها من أمم الغرب فتكسب
عطفهم وتنال منهم تأييداً لما تطلب ؟ وفى النهاية تصل إلى درجة
تتمكن معها من أن تطلب إعتراف العالم أجمع لها بالرشد والحزم
فى تسيير أمورها ، والسهر على مالها وما لغيرها عندها من مصالح
ومنافع خاصة أو عامة . . . !

أتى كما ذكرت قبلاً فى هذه المذكرات طالب « علوم »
لم أعهد فى نفسى يوماً ما ميلاً إلى السياسة أوجباً لها ، حتى أتقرب
منها بالدرس والفحص ، وبذلك يمكننى أن أتقدم إلى تحييد
أو نقد وجهات النظر المختلفة ، وما هى العوائق والمصاعب التى
تقف فى سبيل ما أنشده لمصر من الوجهة السياسية ، وما بيننا وبين
الدول الأخرى من مشاكل دولية كنظام الامتيازات البالى
أو حماية الأقليات أو . . . أو . . . الخ ما يعرفه رجال السياسة
والمشتغلون بها ، وما أكثرهم بمصر سواء عرفوا عنها شيئاً أو لم
يعرفوا ؛ إلا أن معظمهم وجد فى حزبيتها الطائشة الجائحة ، وتيارها
القلب ، وبنائها الواهى الأساس مسرحاً يلهون فيه ويلعبون ، وفى
كثير من الأحيان يصلون إلى ما يبتغون من شهرة زائفة وجاه

لا سبيل إلى الوصول إليه إلا عن مثل ذلك الطريق . فالسياسة
في مصر تجارة رابحة دخلها الوظائف الكبرى في الدولة والمنافع
الشخصية والمحسوبية والوسطاء . وأما رأس مالها فلا شيء
سوى إلقاء القول الجراف ، والتقلب على مبادئ الأحزاب ،
وبالجملة فلا عقيدة ولا تضحية قيمة مجدية في سبيل الوطن ومن
أجل سعادة مصر ورفاهيتها .

لكن في هذا القطار السريع الذي ينهب الأرض نهبا يهمني
أن أدون في هذه المذكرات كل ما يحول بخاطري في سبيل تحليل
أمراضنا الاجتماعية ، والتغلغل في أسبابها على نور الغرب ،
فإن سر الحكمة هو معرفة الداء ومنشئه وتاريخه والتطورات
التي طرأت عليه فأوصلته إلى حالته الراهنة - وعندئذ يتقدم
الطبيب لاستئصال جراثيم الداء ، أو على الأقل للتخفيف
من وطأته على نور التشخيص الحقيقي . فإذا ما انعكست آية
تفكيرى على مجتمعنا في مصر وكيف كوّن ، وما هي العناصر
التي دخلت في تكوينه : بدا لي أن كل ما يظهر عليه من أعراض
الفساد والانحلال ، وضعف الأخلاق وحب الفردية الجامحة ،
وعدم التجانس في كل شيء حتى في المبادئ الأساسية للحياة
اليومية ، كالمسكن والمأكل والمشرب ، هي نتيجة حتمية لأساس
تكوينه . فأن سكان مصر وعددهم يربو على أربعة عشر مليوناً

ليس بينهم نصف مليون يمكنه أن يعتبر نفسه مصرياً حقاً ومن
سلالة الفراعنة - فلقد دخلها اليونان والرومان وأترفوا فيها
ماشاء لهم الترف ، ثم العرب بنفوس البادية الجافة فعموا
في أرضها ووصفوها بحنة الله في أرضه ، واسترسلوا في شهواتهم ،
ومضوا في الحصول على لذتهم الجامحة الطائشة ، فأخذوا بالقشور
ولم يحفلوا باللباب ، وتلك كانت إحدى الظواهر البارزة
في مدنيتهم التي لم تعمر طويلاً ، واستهانوا بحرية الناس فضربوا
عليهم الجزية والاستعباد حتى بلغ الأمر ببعض حكامهم أن
خيل اليه الشيطان إمكان التحكم في عقول الناس ومشيتهم
وتدخلوا في حياة الفرد الخصوصية - ولو أنهم في مدة حكمهم
وتعاقب خلفائهم كان بينهم الصالح والطالح . فقد انتشرت
في ربوع مصر العلوم والمعرفة ، وأصبحت القاهرة تنافس
بغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وصارت كعبة للتأدين والشعراء ،
إلا أنني أشك كثيراً في أنه بالرغم من انتشار العلوم والعرفان ،
والفنون والصناعات ، قد ارتفع المستوى الأخلاقي والاجتماعي
إلى الحد الذي كان قد وصل إليه عمرانهم في نواحي الحياة
الأخرى . دارت الدائرة على العرب وقضت الفوضى
والاضطراب وضعف الحكام على عهدهم بمصر وقد طال أمده .
رزئت مصر بعد ذلك بغزو الترك لها وكان عهدهم شؤماً

عليها انحطت فيه الأخلاق إلى أسوأ درك ، وكان العهد كله سلسلة منقطعة النظير من الرذائل والمخازي ، وفساد الأخلاق التي تجلت في قسوتهم وشدة بطشهم والانحطاط الكبير في كثير من نواحيهم الخلقية ، وسرعة تقلبهم من حال إلى أخرى حسب ما توحى إليهم طرق النفسية الدنيئة - فلا مأمّن ولا سلامة حتى لأقرب المقرين إلى حكمهم وسلطانهم - وقل معنى أنه لم يكن هناك سلامة للحكام ممن أجزلوا لهم العطاء وتظاهروا بالتفاني في خدمتهم والسهر على راحتهم .

عمت الإدارة الحكومية في أيامهم الرشوة بالعرض والمال ، والسعي بالنميمة والمنكر والتزلف والمحسوية والأناية والخوف حتى ثبتت جنود تلك الرذائل في النفوس وأصبحت هي الجواز الوحيد والكفاية التي تتطلبها خدمة الحكام والسهر على مصالح الشعب المنكود ، الذي أثقلوا كاهله بالجزية تلو الجزية دون شفقة أو رحمة ، واستعمل الجباة في جبايتها السوط « والكرباج والعدة والضرب إلى الموت »

ونشطت تجارة الرقيق إلى حد لم تبلغه من قبل ، وهان على الناس بيع فلذات أكبادهم ونسائهم ليشبعوا جشع القائمين بالأمر ، ورضى سواد الشعب بالفتنات أو التضور جوعاً ، ونزل عن كده وعرق جبينه إلى فئة الحكام والحاكمين لينعموا

بالحياة في بدخ وترف بين عشرات ، وفي بعض الأحيان
مئات من الغواني والحسان والجواري والفتيان ،
وبلغ التنافس بعدد الحريم ، وما خلفته من البنين والبنات
منتهاه - حتى وصلت مخازي ذلك العهد المشثوم إلى أن كثر
تأمر الأخ على أخيه ، والعم على ابن أخيه ، وهلم جرا ، فتوالت
المجازر في قصورهم وسالت منها دماء الكبير والحقير . ومع
ذلك كله كانوا يتبجحون بالقول الهراء انهم خلفاء الله في
أرضه ، وانهم حماة الدين - وهم لم يتركوا فيه فضيلة إلا
نقضوها ولا رذيلة إلا ارتكبوها .

وليس ذلك في أرض مصر فقط ، بل في جميع البقاع
التي امتدت إليها أيديهم ، فدولتهم قامت على الدماء والقسوة ،
واستمرت بمقدار ما استمر لهم البطش بالناس ، والأخذ
بالعنف والسيوف ، وما كان أسرع تدهورها عندما بدأت
قوات سيوفهم ومدافعهم وأساطيلهم تتدهور .

وما نظام الامتيازات البالي الذي نثن تحت عبئه الثقيل
إلا أثر من آثاءهم ، وما الرشوة إلى عهد قريب ، والمحسوية
والفردية وحب النفس إلى يومنا هذا في الادارة الحكومية
وغيرها إلا من غرس أيديهم ، وما جبن سواد الشعب وخوفه
وتزلفه للحكام ، واستجداء التقرب منهم إلا أراثا غير صالح

بما كانوا قد فرضوه على الناس في أيامهم حتى أصبح عادة أبان حكمهم في أجياله المتعاقبة ، وليس من السهل التغلب على عادة في وقت قصير من الزمن

عقب حكم الترك في مصر دخل الفرنسيون إليها أبان حملة نابليون بونابرت المشهورة ولكنهم لم يمكثوا بها وقتاً كافياً حتى يظهر أثرهم خيراً كان أو شراً في حياة مصر الاجتماعية .

وأخيراً قىض الله لمصر رأس الأسرة العلوية الكريمة الحاكمة ، فكان رجلها الأوحـد ، عزّ عليه أن يراها طعمة سائغة على مر الدهور وكر الأعوام ، تنعم بخيراتها الدول التي تتمكن من بسط يدها عليها ، وأما أهلها فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة فيكدون لغيرهم ، وهززعون وغيرهم يحصدون - عز عليه أن يكون ذلك حالها وهو الآخر ينعم بنعيمها ويطغى ظمأه من نيلها حتى قام في وجه الباب العالي يطلب لمصر الاستقلال ولم يبخل في سبيل استقلالها بغال أو ثمين ، فأخلص لقضيتها أخلاص الابن البار الذي يعترف بحميل الوالدين حتى كتب الله له النصر فاستقلت على يديه مصر بعد أن أستعبدت زمناً طويلاً . بدأ يسرد لها ما فقدته من عزة ، وما سلبتها مئات السنين من الاستعمار من كرامة ونخوة ، ألا أنه من سوء حظ مصر أنها لم توفق في السهر على تربية ذلك الجيل الناشئ ، والتعهد بالقيام نحوه

بما يجب، حتى يكبر ويتعرع ويصبح قوياً قادراً على أن يزود عن حوضه ويرد سهم عدوه اذا ماصوب اليه .

هبت عليها عاصفة الثورة العراقية وهي لا تزال فتية فلم تقو على احتماها وتحطمت دعائم استقلالها وتصدع ذلك البناء الذى قام بتأسيسه محمد على باشا الكبير بعد أن ضحى فى سبيله بكل حب واخلاص ، وفى تأسيسه بكل ماملكت يده من مال ودماء ، واسترخص فى تقوية دعائمه كل شىء ، حتى دفع أولاده وفلذات كبده فى سبيل الذود عن كيانه والأعلاء من شأنه . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قضى الأمر وانهار البناء ودخل الانجليز أرض مصر وتحكموا فى أهلها شأن المستعمرين فى جميع بلاد الارض ، وضربت علينا الرقابة والوصاية والتدخل فى أمورنا وشئوننا الحيوية والاجتماعية مما لازلنا نعانى ، إن لم يكن كله فمعظمه اليوم .

ليست هذه العناصر التى ذكرت هى وحدها التى تمثل مجتمع مصر وشعبه : بل فيضان نيلها السنوى بالخير العميم ، وما اتصف به أهلها من المثابرة على العمل فى صبر وجلد ، وحب السلم ، وكرم الضيف ، وسعة الصدر ، وما حبثها الطبيعة من موقع جغرافى نادر الوجود فهى حلقة إتصال الشرق بالغرب وخصوصا بعد شق قناة السويس : زد على ذلك ما خلفه الحكم التركى من

بقاء الامتيازات الأجنبية معمولاً بها إلى اليوم . كل ذلك جعلها هدفاً للطامع الدولية والشخصية فتحولت إليها رؤوس الأموال الأجنبية لتستغل مواردها الكامنة ، وأهلها عن ذلك غافلون ، كما نظر إليها مختلف الأفراد من جميع بقاع الأرض وخصوصاً الذين هم من رعايا الدول ذوات الامتياز ، فمن كان منهم قد ضاق به العيش في بلده رحل إلى مصر عله يجد فيها مورداً للرزق ، ومن كان منهم يحب المخاطرة لكسب المال وجد فيها مغنمه وما يبغيه لأنماء ثروته . وكيف لا تنمو الثروة مادامت في كنف الامتيازات دون ضريبة دخل أو عوائد أو . . أو . الخ بين شعب سخى كريم ساذج إذا ما اضطرت أفراد الحاجة ، مد يده إلى تلك الثروة يقرض منها بأرباح باهظة قلما يسمع بفداحتها سكان أمم الغرب حتى تخالها أسطورة من الأساطير . وعلى هذا تجد كل أمم الأرض تقريباً ممثلة في مصر وخصوصاً الأمم الغربية وجاراتنا من الأمم الشرقية كسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد شمال أفريقيا المتاخمة لحدودنا وغيرها وغيرها . . فلا تجانس ولا تآلف بين السكان - فهم متباينو الأجناس ، مختلفو الميول والامزجة . وكثيراً ما ترى كل جالية من جالياتهم تكاد تكون مستقلة تدير أموراً بنفسها ، ليس هناك من رابطة تربط الجميع لأن معظمهم لا يريدون أن

يساووا بينهم وبين سكان مصر العاديين فى الحقوق والواجبات،
مهما طال على مكثهم الأمد، ومهما كان لمصر عليهم من خير وفضل .
بل أن كثيرين منهم ينظرون إلى المصريين نظرة السيد للعبد،
فلا يقتربون منهم إلا لحاجة، وإن هم ظفروا، بها رغبوا عنهم
وعن مجتمعاتهم وعن كل شيء يميزهم، حتى لا يحسبهم غيرهم
من الجاليات الأخرى قد تمصروا - فكل جالية لغتها، ولكل
جالية تقاليدها ومجتمعها، أو ربما سمح للجاليات بالاختلاط
بعضها ببعض، ولكنى لم أسمع بعد باختلاط إحدى هذه
الجاليات بمصريين ... أو كما يقولون فى كثير من
الأحيان بالعرب !

مضى على ذلك الحادث الذى لا يزال يعلق بذاكرتى أكثر
من ثلاث سنوات وهو على ما فيه من دلالة على قصر
نظرهم يدل دلالة واضحة على مبلغ تفكير هذه الجاليات
ومركزها بالنسبة للمصريين

كنت ذات يوم أتمتع بأشعة الشمس وهواء البحر العليل على
شاطئ البحر فى رمل الأسكندرية، وسبحت فى التفكير وإذا
بسيده - عرقها فيما بعد أنها أرمنية وليست انكليزية ... أو فرنسية ..
أو ... تصيح بصوت عال بالفرنسية على ابنها الصغير الذى اقترب
منى « انه عربى . انه عربى . . تعال هنا يا ... !! » نسيت اسم الطفل -

فما سمع الطفل ذلك حتى رجع اليها مسرعا . . . !!

تهدت عميقا وقلت في نفسي . نعم أنتى مصرى عربى ولكن
لم أكون مدعاة خوف لابن هذه السيدة الأرمنية . . ؟ يا للقدر
ويا للقسوته ! . . لقد سخرنا لغيرنا يمتصون دمعنا دون رحمة
أو شفقة ، وبعد ذلك كله ينفرون منا ويلقون الرعب فى نفوس
أولادهم لمجرد التقرب منا أو من ظننا ! . . . !!

وربما كان أظهر شيء فى مجتمعنا المصرى وخاصة فى المدن
الكبرى وعواصم الأقاليم التى تسكنها الجاليات الأجنبية عادة ،
حيث يقبضون على ناصية التجارة ورءوس الأموال
المتحركة والمصارف والبيوتات المالية ، هو الصراع الفردى
والمصلحة الشخصية والاحتياى بكافة الطرق على كسب
الأموال واستثمار ثروتهم الخصوصية . فلا أحد منهم - يستوى
فى ذلك الفرد والشركة - يعنيه التفكير فى أمر مصر وسعادتها
ورخاء أهلها إلا بقدر ما يعود عليه من فائدة .

فكيف إذن يتيسر لمجتمع قوامه كما ذكرت عشرات
الأجناس المختلفة المتباينة ، وكل جنس منها له تفكيره الخاص ،
أن توحد صفوفه وتُقرب بين وجهات نظره المختلفة حتى
يشعر بشمور واحد . . . ؟ ان وصولى على عجل الى نتيجة تحليل
مجتمعنا فى مصر ولم أتبع فى ذلك حقائق التاريخ مبوبة وكيف

حصلت حوادثها وما جناها الشعب من أثرها ... وذلك لجهل
بتلك الحقائق إلا أن ما ذكرت من وحدات تكوينه إن لم
تكن قريبة من حقيقة ما وقع ففيها الشيء الكثير منها .

والآن أتصفح هذه المذكرات وأعيدها فيظهر لي على
ضوء ذلك التحليل أن ما وصلت إليه من نتائج التباين
والاختلاف في المجتمع المصري هو الأساس المباشر أو غير
المباشر لجميع ما يبدو عليه من نقص وما يفتقر إليه من مميزات .

يقولون أن ليس لنا سياسة ثابتة ولا أرادة قوية فعالة ،
فنحن قوم نسير مع كل تيار ، وما أسرع تقلبنا من وجه إلى
وجه ، ومن مبدأ إلى مبدأ ، حسب مقتضيات المصلحة الشخصية -
وما دامت تلك حالنا ، فلا عطف علينا ولا احترام لحقوقنا ... !!
حقاً عندي ما يقولون !! ... !!

ولكن يجب على القائل أن ينظر إلى أساس المجتمع
وتكوينه قبل أن يلقي بالقول جزافاً : نعلم أنه كلما قلت العناصر
والأجناس المكونة لأمة من الأمم شعرت تلك الأمة
بشعور واحد - وإذا ما سرى ذلك الشعور الواحد ، فإن
جميع الأعمال التي تصدر عن أفراد الشعب تكاد تكون
متشابهة متماثلة ، وأن هي اختلفت في أشكالها وأوضاعها فإن
جوهرها وهو الشعور لا يزال واحداً يرمى إلى غرض واحد ،

وتتجلى فيه روح الوحدة والاستقرار - ولا أدل على ذلك
مثلا من أن إنجلترا ، وسوادُ سكانها في حالتها الراهنة من أصل
واحد وعنصر واحد وهو العنصر السكسونى
- تجد أن سياستها وأعمالها تصدر عن شعور واحد ، فهى أكثر
استقراراً وأقرب إلى الإجماع فى تدبير شؤونها ، وتكيف
سياستها الداخلية والخارجية من الأمم التى تنافسها فى القوة
والعظمة . فمثلا جارها فرنسا - فإن قوام سكانها خليط من
عناصر ثلاثة وهى العنصر السكسونى وعنصر البحر الأبيض
المتوسط (Mediterranean Races) وعنصر جبال
الألب (Alpine Races) - ومع أن هذه العناصر الثلاثة
قد امتزجت بعضها ببعض مدة طويلة من الزمن - إلا أن هذا
الامتزاج لم يمح بعهد الشعور الأصلى لكل عنصر حتى
يوحد بين جميع السكان ، فيشعرون بشعور واحد - ودليل
ذلك ظاهر فى عدم استقرار السياسة الفرنسية وسرعة تغيرها
بتغير شعور القائمين عليها .

وعلى هذا المقياس يمكن أن يقاس مبلغ استقرار سياسة
أمم كثيرة ، ووجهات نظرها والنتائج التى ترمى إليها هذه السياسة ،
والتي يكون الدافع إليها الشعور المستمد من شعور العناصر
والأجناس البارزة فيها .

أليس هناك اذن سبيل لبناء مجتمعنا المصرى وهو على ما فيه من تفكك، وما يحويه من عناصر وأجناس مختلفة عديدة، بعضها يأبى أن يندمج فيه، وبعضها لا ينظر إليه إلا كما ينظر السيد المتعالى إلى عبده المتواضع الذليل؛ فلا يشعرون بما يشعر به عامة الناس، ولا يفكرون فى خيرهم وسعادتهم مادامت وسائل العيش والترف فى متناول أيديهم.....؟؟

لست أعهد فى نفسى قدرة أو حكمة لأصف دواء ناجعاً لحالة اجتماعية كالتى نحن بصددھا الآن، غير أنى لا أتمكن من ضبط نفسى وتحويلها عن التفكير فى مثل هذا الطريق الوعر، وقد قطعت فيه مرحلة حتى بدا لى أنى قد كشفت سر الداء وأيت ألا أن أتم ذلك باقتراح دواء ولو لم يكن فيه الشفاء كله - لذلك فانى أتقدم إلى سكان مصر عامة لافرق بين وطنيين مصريين منهم، أو متمصرين، أو أجانب، مهما كانت أصولهم ومهما اختلفت أجناسهم، فأحتكم إلى ضمائرهم وأذكرهم أن من أمقت ما يتصف به المرء الجحود بالنعمة ونكران الجميل وحبُّه الأخذ دون عطاء - فطالما رضوا لأنفسهم أن تتغذى أجسامهم، وتبنى أجسام أولادهم وعشيرتهم من خير مصر وما تنتجه أرضها، ويطفئوا ظمأهم من نيلها، ويتمتعوا بالحياة حلوة لذينة بضرورياتها وكالياتها نتيجة استغلالهم لموارد

مصر ، وأخيراً يتمتعون بمناخها المعتدل اللطيف ذى الشمس
الساطعة والسماء الصافية الأديم - اذن حَقَّ عليهم أن يهبوها
شعوراً حقيقياً من عطف أرواحهم ، واعترافاً فعلياً بما لنيل
مِصر عليهم من فضل ، فان فى مياهه التى تنساب فى مجراه
الضيق المبارك حياة لهم ولابنائهم

إذا ما اتحدت سكان مصر على اختلاف أصولهم وأجناسهم
وأقسموا بمين الاخلاص لخير ذلك الوادى الذى رحب بهم وغمرهم
بخيره وفضله ، حتى أصبحوا يعيشون فى سعة ورغد من العيش ،
فان ذلك الاخلاص لا محالة سيولد شعوراً حقيقياً فى النفوس
يدفع الناس أجمعين إلى غاية واحدة، وسيتجلى ذلك الدافع فى عمل
الفرد اليومى العادى دون أن يعرفه الفرد نفسه ، ولكن كما
ذكرت سالفاً فان الأعمال فى معظم الأحيان تطبع بطابع
الشعور النفسى الداخلى حتى أن أعمال الفرد الخاصة أو العامة
تظهر كأنها مرآة حقيقية لشعوره ودخيلة نفسه .

وهذه الغاية التى سيعمل لها الجميع هى سعادة مصر ورفعتها
واعلاء كلمتها بين الأمم والمحافظة على عزتها وكرامتها بالدماء
والأرواح والأموال - ومتى وَجَدَ الاخلاص الحقيقى الذى
ينمو عنه شعور العمل للوصول الى تلك الغاية ، فثق بأنه
مهما اختلفت السبل ، وتعددت وجهات النظر ، وأخذ كل فريق

يفكر لنفسه حسبا يراه موصلا للغاية . فأن الجميع
مهما سلكوا من وجهات متعددة ، ومهما ولجوا من أبواب
موصدة ، فسيسترخضون كل غال وثمين ، وسيضحون وهم في
ذلك طائعين مختارين ، فرحين مستبشرين لذلك السبيل
الذى إذا سلكوه فأنهم لأمحالة واصلون إلى ما يبتغون .

وأنى باقتراح كهذا لست أطلب المستحيل من سكان مصر ومن
فيها من عناصر مختلفة - ولهم خير أسوة بأمريكا
وخاصة الولايات المتحدة ، فسكانها كما يعرف الجميع من
أجناس متعددة ، وأصول مختلفة متباينة ، نزحوا إليها من جميع
بقاع العالم تقريبا واستوطنوا في أرضها التي غمرتهم بنعيمها
وخيرها ودرت عليهم الذهب والفضة وتكدست
رموس الأموال من خيراتها الكامنة فيها - ولما دعا داعى
استقلالها ووجوب حياتها بين أمم الأرض عزيزة كريمة ،
لتتنفس هواء الحرية تحت الشمس ، وتحكم في أمورها الداخلية
والخارجية ، حينما تريد ، وحيث تريد ، تبعا لرغبتها الخاصة لا
تنفيذا لرغبة أخرى فرضت عليها لتقبلها .

فلما قام من أجل ذلك النضال بين سكان تلك الديار
والمستعمرين البريطانيين ، وتطور نضالهم الى حرب الاستقلال
المشهورة التي اشتركت فيها جميع العناصر والأجناس مهما

كان أصلهم أو لغتهم ، فوحدوا صفوفهم وقد سهل عليهم ذلك شعورهم بشعور واحد نحو سعادة الوطن وكرامته ، واعتراهم بجميل الأرض التي رحبت بهم فاستوطنوها وأصبح لها عليهم حق . ولقد برهن الجميع - حتى من كان منهم قد نزح إلى أمريكا من بريطانيا العظمى أو مستعمراتها - أنهم استهانوا بكل صعب ، ووقفوا في وجه كل خطر ، وقدموا أنفسهم قربانا لوطنهم الجديد . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى ظفروا لأرضهم بالكرامة والعزة ، ولوطنهم بالمجد والرفعة ، وأعلن استقلال البلاد ورفع عنها النفوذ الأجنبي . ولو أن هذا النفوذ لم يكن غريبا على كثير من السكان الذين هم من أصل ودم واحد بل في بعض الأحيان من مواليد بريطانيا العظمى ، إلا ان وجودهم بأمريكا ورضاهم بالاستيطان فيها وما غمرتهم به من فضل ، حول شعورهم وخلق فيهم شعوراً جديداً نحو وطنهم الجديد الذي من أجله تقدموا الى ساحة القتال ليقاتلوا فيها العدو ، وما جيش ذلك العدو إلا من أخوانهم وأقاربهم وجيرانهم ومواطنيهم بالأمس .

عند ذلك الحد من التفكير بدأت أتصفح هذه المذكرات لأقرأ فيها ما جال بخاطري ، وما عنت لي كتابته عن نظام المجتمع المصري وطرق اصلاحه فلاحظت فيها كتبت نقصا كبيرا - فحقائق التاريخ

التي ذكرت غير واضحة ولا جلية، وسلسلة الأفكار ليست منتظمة كما يجب أن تكون . فكثير من حلقاتها قد تكرر الى حد السأم والضجر فعزوت معظم هذا النقص الى أن حبل التفكير لم يكن متواصلا ، فكثيراً ما تخلله فترات من الاضطراب تختلف في القصر والطول - تحول النظر الى منظر طبيعي أطل عليه من نافذة القطار ، أو محادثة غريبة بين الركاب ، أو تغلب الكسل والخمول حتى أغمض جفني وأحاول النوم . . أو ما شاكل ذلك .

أمسكت بالقلم وبدأت أحاول أن أجلو ما غمض من حقائق وأردت أن أتخلص من ذلك التكرار المعيب ، وما هي الا لحظة أمضيتها أفكر في خير الطرق التي أسلكها في عملي الجديد ، حتى لفتت نظري كثرة الحركة بين الركاب ونهوضهم لترتيب أمتعتهم . أردت ان استطلع الخبر ونظرت من النافذة فاذا القطار قد قارب الدخول مدينة - سألت أحد جيرانى فأخبرنى انها كاليه ، وهي آخر محطة يصل اليها ذلك القطار على الحدود الفرنسية - فلم يكن هناك بد من أن أترك هذه المذكرة على حالها ، وأنهض لأرتب نفسي فأستعد لمغادرة القطار الى السفينة التي تصل بعد ساعتين من هذه اللحظة الى ميناء دوفر ، الانجليزية .

الاستقبال

كان في استقبالي على محبة ليفربول نفر من الأصدقاء وبينهم
كلير وكاتلين وما أن وقع نظري على الأخيرة حتى شعرت
باضطراب في أعصابي ، وازدياد في نبضات قلبي ، وتغير
في حركاتي ، إذ ظهر ذلك عليّ جلياً فتلعثمت في القول وفقدت
كثيراً من ذلك الهدوء الذي طالما احتفظت به إلى حد أن كان
يصفني به بعض الأصدقاء .

حياتي الجميع وهم على ما يظهر فرحون باسمو الثغر ، فاجتهدت
أن أرد تحيتهم بمثلها ثم بدأت بمصافحتهم فرداً فرداً ، وتعمدت
أن تكون كاتلين هي آخر من أصافح علني أتمكن من القبض
على يدها ولو برهة قصيرة من الزمن - وكنت أود أن تكون
بمفردها حتى أطبع على تلك اليد قبلة تحمل إليها بعضاً مما يكنه
لها صدري ويخفق به قلبي - ولكن مجرد الفكر في أني أصبحت
الآن بجوارها وسأنعم برؤيتها كلما شاءت ظروفنا ذلك أدخلت
على نفسي سروراً وعلى قلبي برداً وسلاماً .

ولما كان بعض مستقبلي لم يسبق لهم التعرف بالبعض الآخر ،
رأيت واجباً عليّ أن أقوم بهذه المهمة دون بطاء أو تريث
فذلك أمر لازم الحصول وخصوصاً في المجتمعات البريطانية

وكانت هذه أول مرة التقت فيها كليز بكاتلين وجها إلى وجه ،
وربما سمعت إحداهما بالأخرى من محادثة لى ، أو أطناب
فى وصف أحدهما عند التحدث للأخرى عمن أعرف من
أصدقاء فى المدينة .

اعتذر بعض الأصدقاء وبينهم كاتلين عن مصاحبتى
إلى المنزل ومن بقي منهم رافقونى ، وماهى اللحظة بعد الوصول
حتى استأذن الباقون فى الانصراف ، ولكنى الحفت كثيراً على
كليز أن نمكث ولو قليلا ، فأبت وأسدت إلى النصيح بوجوب
الاستراحة بعد ذلك السفر الطويل ثم وعدت أن ترانى فى الغد .
برت كليز بوعدى - ولم أعهد فيها غير ذلك -
فحضرت فى ساعتها المضروبة ، دون تأخر منها ، أو قليل انتظار
من جانبي ، وجلست إلى طويلا تسألنى عما قوبلت به من عطف
أو جفاء ، وما شعرت به من غبطة وسرور ، أو وحدة وانفراد ،
وما شاهدته من تفاصيل الحياة الاجتماعية وعادات الناس
وأخلاقهم ، وكيف وعلى أى وجه يمكن مقارنة هذه الحالات
والعادات بمثلها فى انكلترا وماهى عوامل الشبه والاختلاف ؟
فتارة كانت تنقد وجهة نظرى نقداً مرأ لما أقدمه من أسباب
وبراهين واهية ضعيفة غير قوية فى بعض الحالات - وتارة
كانت تتفق معى فى التعليل وتظن أن فى ذلك شيئاً من الصواب ،

وأخرى كانت تنير لى الطريق حتى أهتدى بفضل جداولها الهادىء
الرزين الخالى من كل تحيز جنسى أو عصبية متطرفة إلى السبب
الحقيقى كما أريد .

مكثنا على هذا المنوال وقتاً غير يسير ثم أردت بدورى أن
أستطلع تفاصيل أيام الأجازة وكيف أمضتها . . ؟

فشرحت لى كيف اختمرت بنفسها فكرة تعلمها الطيران ، وما
لافته من صعوبة فى أقناع والدتها بصواب فكرتها ، وبعد اللتيا والتي
أذنت لها بالبدء وكانت أشد الناس شوقاً إلى تحقيق أملها فى هذه
الناحية ، فعكفت إلى الذهاب إلى المطار فى صباح كل يوم
لاح لها فى بدايته بريق أمل بأن الأحوال الجوية ستتحسن فيه
لدرجة تسمح بالتمرين والتدريب . ولم يمض غير شهر من
تاريخ البدء حتى سمح لها مدربها بالصعود فى طائرة منفردة
بنفسها - ثم ماوصلت إلى هذه النقطة حتى أسهبت فى بلاغة
عما عن لها من فكر وآمال ، وما أحست به من شعور فياض
وغبطة نفسية لما حققته من أمل ، كادت تحسب يوماً ليس بالبعيد
أنه أقرب إلى الأحلام اللذيذة منه الى الآمال الممكنة التحقيق .
ثم استطردت فى الحديث عن الطيران وميزته فى كل وقت
ومستقبله فى المواصلات والهجوم والدفاع ، ثم انتقلت فى
الكلام عن المحركات وأنواعها وأياها تفضل وكيف نجت بأعجوبة

من موت زؤام عند وقوف محرك طائرتها في الهواء وهي على بعد كبير ، فسقطت الطائرة وتحطمت أجنحتها . . ولكنها خرجت منها سالمة دون ان تصاب بكسر او رضوض . . . ثم تقول ان ذلك لم يثنني عن عزمي ، بل بعد ساعتين ونصف ساعة من وقوع الحادث كنت في الهواء مرة اخرى بمفردي وكنا خمسة تتسابق ، ففزت بالسبق ، ونزلت الى الارض على أتم نظام . وما كدت أخرج من طائرتي حتى أقبل عليّ المهندسون ومدربي بينهم تظهر عليه أمارات الدهشة والاستغراب وكأنني به يقول في نفسه . . في خلال ساعات معدودات من موت زؤام لم يفت في عضدها ولم يحدث في أعصابها اضطراباً ولم يملكها الخوف . . بل وصلت الى فوز في سبق ونجاح في الميدان .

كفاني ما سمعته منها من أخبار الطيران وأنا أجهل الناس به فلم أركب من الهواء إلا مرة في طائرة كبيرة من طائرات الشركة الامبراطورية الجوية وحولتها اثنان وثلاثون شخصاً . وكان الذعر والخوف يملكان جميع حواسي .

أردت أن احول مجرى الحديث الى الكتب وما قرأته من أدب ، وما أكتب عليه من درس وتحصيل ، ولكنني في الحال أدركت مبلغ نشاطها في تلك الناحية ، وان هي بدأت فلن يكون هناك مجال

لكلامى وربما تكشف فى أثناء الحديث الشيء الكثير عن
جهلى وعدم تتبعى قراءة كتب الأدب الحديثة ، وفى بعض
الأحيان آرائى الرجعية فى مسائل معينة ، فاكتميت من ذلك
بالهزيمة وتقبلتها قبل أن أبدأ الحديث أو أعين ولو بالتلويح
ذلك السيل ، وما قطعت فيه من مراحل . وآثرت أن
أستدرجها من حياة الكد والجد والعلوم والآداب ، إلى ما
هو أبسط وأقرب إلى حديث العامة سكت لحظة ، ثم
قلت : ما بال دمارى ، لم أسمع منها أو عنها شيئاً يذكر طول
المدة التى تركتكم فيها ؟ .

قالت - رأيتها أربع مرات فقط ، وفى كل مرة صحبة
كارل جالسة بجانبه فى سيارته التى تعرفها ، وآخر هذه المرات
منذ أسبوعين . ولقد سألتها عما إذا كانت قد غادرت ليفربول
فى هذه الأجازة ، فعلا وجهها شىء من حمرة الخجل
والاستحياء ، وقالت فى صوت منخفض : نعم ذهبت إلى
اسكتلنده مدة أسبوعين صحبة كارل بعد أن ألح علىّ فى ذلك
فلم أر بداً من القبول .

قلت : إن مارى فتاة خجولة يملؤها الحياء فى الأمور
التي تتعلق بشخصها . ولاكنها على عكس ذلك فيما يتعلق بواجبها
أو بغيرها من الناس - وهى على ما سمعت من أصدقائها

بمدينة « كيل » محبوبة جداً من أخوانها وصديقاتها .

قالت . لست أشك في ذلك ، وأنا الأخرى أميل إليها ميلاً شديداً ، وأعتقد أنها خير الصديقات ، فهي متحلية بكثير من الفضائل التي يبغيها الإنسان في صديقه - وربما كشف كارل لنفسه عن ذلك فازداد بها تعلقاً - وقد لاحظت أن في كل نظرة من نظراته إليها ، آية من آيات العطف ينبعث منها شعاع الميل والحنو والشفقة والحب .

قلت : أتظنين أن كارل اشتد هيامه بماري إلى مثل ما تصفين ؟ ؟ .

قالت : ولم لا يكون ذلك أو أكثر - فهو أيضاً كما عهدناه شاب خجول محتجز ، ولست أقول حارساً أو تخميناً ولكن يحسن أن نترك الأمر الآن وأن نكل إلى الحوادث والأيام أمرهما ، فلا مفر من أن تكشف عنه إذا ما حان وقته .

أطرقت برأسي إلى الوراء واستترحت في جلستي ، ثم أشعلت سيجارة ، وقلت في تردد شديد .

ماذا يعجبك في كاتلين وماهي ملاحظاتك عليها لأول مرة . ؟ ؟

قالت : انها فتاة لا بأس بها من حيث القوام والجمال ؛ ولغتها تدل على انها ليست من وسط عادي « وسط العمال » ومظهرها وحسن هندامها يدل على الذوق وفوق ذلك فانها فتاة جذابة ..

هذا ما يمكننى أن أراه فيها لأول مقابلة . . ومع ذلك
ف. . . ، وهنا طرقت الخادمة الباب ، ثم دخلت وأعلنت ان
بالباب زائرين يرغبون فى مقابلتى ، فاستأذنت من كبير ، ونهضت
نحو الباب ، وإذا بمارى صحبة كارل جاءا ليهنئانى بسلامة العودة .
جلسنا جميعاً نتحدث فى صفاء تام ، وجو مشبع بالسعادة
والسرور ، وكأننا أخوة أو أقارب يفضى بعضنا الى بعض
بكل حادث تطلب شيئاً من لفت أنظارنا اليه أو الاهتمام
به طول الأجازة الصيفية ، ويجب أن أدون هنا ان نصيبى
فى تلك المحادثات كان وافراً . فقد أمطرني الجميع مختلف
الأسئلة عما شاهدته ورأيتـه . وكانت مارى أشدهم شوقاً
لسماع ما اجيب به ، خصوصاً وصف الحياة الاجتماعية
الألمانية ، ونفسية الشعب وما خلفته الحرب الكبرى وما
تبعها من معاهدات ضيقت من حرية الشعب وفرضت عليه
كثيراً من الواجبات التى أثقلت كاهله .

اتهى الحديث وانصرف الجميع ، ثم أسرع فارتديت
ملابسى وتركت المنزل إلى حيث تشغلت كاتلين ، على أن أحظى
برؤيتها . وما كاد نظرها يقع علىّ حتى أومأت إلى ايماءة خفية
عرفت مغزاها ، فلكأت فى أحد أركان المحل استعرض شيئاً
من البضائع . وبعد لحظة وجدتها مرت بجاني ، ثم قالت فى

صوت منخفض - الساعة السادسة مساءً أمام محل !
كان ذلك خير بضاعة دخلت الى المحل من أجلها،
فليس هناك ما يعادها في نظري من مجوهرات أو حلى. وقت في
ميعادى فرحاً مسروراً إلى الطريق العام الذى سرت فيه،
وقد تعمدت ان انسى كل شيء حتى نفسى وأسلمها ولو لحظة الى
ملاك الحب الطاهر فيرفرف عليها بأجنحته المباركة، ويغمرها
بسعادته الأبدية .

العام الدراسي الجديد

مرت الأيام مسرعة ، وبدأ العام الدراسي وأقبل الجميع
على الدراسة والتحصيل بهمة ونشاط جدد هما في نفوسهم
عطلة الصيف وما أدخلوا عليها في أثنائها من ترويح عنها،
ورياضة للجسم ، وتنمية للبدانك ، وتنوير للذهن والعقل ، كل
حسب ماهيات له ظروفه . فمنهم من سافر وتنقل في البلاد
الأجنبية أو في أنحاء انجلترا المختلفة . ومنهم من عمد إلى هواء
البحر العليل فذهب إلى ساحله لينعم بمياهه وأمواجه التي
تتكسر على الصخور وتمتد الى الرمال ثم لا تلبث أن ترتد
إلى مصدرها في حركة منتظمة غير منقطعة وهم يعرضون أجسامهم

لأشعة الشمس وحرارتها وبذلك يعوضون عليها ما حرمته
في أثناء شتائهم الطويل . ومنهم من سلم نفسه الى الطبيعة
وارتمى في أحضانها يقضى نهاره تحت شمسها الساطعة ،
وفي ظل أشجارها الوارفة ، يتنفسون هواء الحرية في كل شيء ،
ويعمدون إلى محاكاة الطيور في أوكارها ، وفي الليل تكون
مأواهم خيام مضروبة الغرض الأول من وجودها معهم
وقايتهم من البرد وطوارئ الجو - وبالجملة ليس هناك بين
الطلاب من يتحمل الاستكانة والانكماش في عقرداره ، ويقعده
الكسل عن الاستفادة بكل لحظة من لحظات العطلة الصيفية ،
اللهم إلا إذا اضطرته إلى ذلك ظروف قاسية تقعده عن أن يتمتع
بالعطلة ، وقلبا يبدأ أول يوم من أيامها وليس هناك طالب
أو طالبة لم يكن قد كون في ذهنه على الأقل منهجاً حافلاً
بكيفية قضائها مراعيّاً في ذلك ظروفه وطاقته .

تفرغ كل منا لدراسته وعمله وسلك سبيله وأصبحت
لا أرى كبير إلا قليلاً ؛ فتارة بطريق الصدفة بين أوقات
المحاضرات أو في المكتبة وهي مكتبة على الدرس والتحصيل ،
وتارة - وكان ذلك نادراً - بدعوة منها لتناول شاي بعد
الظهر مع بعض أخواننا وقد فهمت منها أنها لا تزال تسليخ
الشيء الكثير من أوقات فراغها في ممارسة الطيران والتمرن

عليه . ولقد أولعت به ولعاً شديداً فليس هناك من يثنى عن
هذا العزم وهي مستعدة لأن تضحي في ذلك السبيل براحتها
وبما ادخرته طول حياتها من مال وان لم يكن كثيراً -
حتى أنها من شدة ولعها بهذا الفن بدأت تقتنى ما كتب عن
تاريخ الطيران ، وكيف تطور وما وصل اليه ، وما ينتظر أن
يصل اليه هذا الضرب من المواصلات وما يستعمل فيه
أثناء الحروب ، وتضم ذلك الى مكتبتها .

وأما ماري فطالما قتشت عنها بين أوقات المحاضرات
وقلما حظيت برؤيتها ، وأخيراً ساورني القلق ودفعني الشوق
مع الاخلاص وحب الاستطلاع ، فكتبت اليها أطلب مقابلتها
وحددت لها الزمان والمكان ان أمكنها ذلك - فردت على
شاكراً بالقبول .

وكانت بجاني تحتسى الشاي في الميعاد المضروب . وبعد
التحية ، وكيف حالك وصحتك ، سألتها - « مضت مدة طويلة
على بدء العام الدراسي ولم أرك في أثنائها غير مرة ٩ - اتشم
ان يكون السبب خيراً ... 11 »

أطرقت برأسها وتهدت تنهداً عميقاً ثم قالت ...
هو خير واستطردت في الحديث وقالت ...
عهدتك صديقاً وفيّاً ولست أرى مانعاً من ان اختصك

بشيء من أسرارى . . . ان قبلت ذلك . . ! وابتسمت
فى وجهها وقلت - لا مانع عندى ان اشاركك ماتشعرين به
واعذك ان احتفظ بسرّك وسأضن به على اقرب المقربين
الىّ فهو لك وليس لى حق التصرف فيه .

قالت - شكراً . . . سبق ان ذكرت لك الظروف التى
من اجلها غادرت اهلى وعشيرتى ، كما انك تعلم ايضاً الظروف
اللى اعيش فيها فى هذه البلاد ، فانى لست حرة طليقة وخصوصاً
بالنسبة للوقت . عندى وقت الدراسة الجامعية وقد كثرت
محاضراته فهو عامى النهائى . ولا يخفالك مايتطلبه ذلك من
جهد حتى أنهض بأعبائه واكون فى المستوى الذى ارضاه لنفسى
بين اخوانى وسرعان ماينقضى العام واجلس معهم الى ورق
الامتحان ثم هناك الواجب المنزلى الملقى على عاتقى
ومايتطلبه منى سيدة المنزل من نظافة وترتيب واعتناء بكل
شئ . فهى حريصة على ان اتبع فى كل شأن من شئون المنزل
نظاماً خاصاً ، وترتيباً خاصاً ، وذلك يتطلب وقتاً كبيراً - ثم
هناك أيضاً ممارستى اعطاء درس خاص لفتاة فى اللغة الألمانية
بدأته فى أثناء العطلة الصيفية وقد وعدتها بالاستمرار فيه حتى مغادرتى
هذه البلاد . فلست أجد فى نفسى قدرة على التنصل من ذلك
الوعد أو التهرب منه . ليس ذلك كل مايشغلنى فحسب

بل .. بل ان لدى أمراً آخر هو في الحقيقة السر الذي
رأيت أن أؤمنك عليه فقبلت الامانة وهاكه .

تعلم ايضاً الظروف التي قابلت فيها كارل والمحاولات
التي كان يقدمها إليّ وكنت دائماً أتجاهل امرها . واتجنب
الاقتراب منه اقتراباً من شأنه ان يسهل عليه ما يريد او يفهم منه
أنتى ابادله العاطفة بالعاطفة والود بالحنو .

لم يشن ذلك كارل عن عزمه فأكثر من التردد على المنزل ،
وحل دائماً فيه على الرحب والسعة ، وانت تعرف ان ليس لي
في المنزل شيء حتى أتمكن من مصارحته ان عليّ في هذه
الحياة واجبا ثقيلا ، وعلى هذا لا أتمكن من مقابله كلما اراد
ذلك . وتعلم ايضاً مبلغ ظرفه وادبه ، وحسن قوامه وهندامه
ومقدار جاذبيته كشاب في ريعان شبابه ، ومبلغ ثقافته وكده
في عمله - وانا اعلم منك بما تشع به نظراته من عواطف
تكشف عن دخيلة نفسه .

واما انا فلست أخفي عليك انى استلطفت كارل لأول مرة
رأيت ، وكلما تردد على المنزل ازداد قلبي ميلا اليه وتعلقا به
وتقربا منه .. ولكنى كنت دائماً اذكر الواجب الملقى على
عاتقى فأتجاهل قلبي آه ، وكثيراً ما تجاهلته ... الى ان
ضقت ذرعاً بتلك المحاولات الزائفة .. وكأنى انا المخلوق

الضعيف ، اردت ان اعيش بقانون من قوانين الطبيعة ،
جرت عليه الحياة ، بل هو سرها منذ الأزل . ولكنى بؤت
بالفشل وصارحت نفسى بالهزيمة ، ولم أر بداً من الاقتراب
من كارل ومصارحته بالأمر ليشمانى بحبه وعطفه ، فيطمئن
قلبي ونهدأ اعصابى ولو الى حين ، حتى يقضى الله امرأ كان
مفعولاً - مما ذكرت تجدىنى لا احس بسعادة الا بجانب كارل ،
فمن صوته اسمع موسيقى الحياة تهتز بها اعصابى ، وفى كل
ابتسامة من ابتساماته برد وسلام على قلبي . لذلك وتحت تأثير هذه
الظروف القاسية فانى رحمة بنفسى وبقلبى احاول ان اسلخ بعض
الوقت لأقضيه بجانبه فى الخلاء ، يبت الى ما يكنه من حب
وغرام ، وأنا الأخرى بدورى أظهر له ما بقلبي . . . عساك
الآن أن تعفو عني ان أنا لم أسع الى مقابلةك فليس ذلك هرباً منك
ولكنه اقتصاد لوقتي الثمين .

قلت : أما عفوى عنك فقد منحته اياك دون أى شرط
أو جزاء - وأتمنى من صميم قلبي أن تنعمى بحب كارل ، فقيماً
قالوا الحياة الحب والحب الحياة ، ولا حرج عليك إن أحببت
وخصوصاً إذا كان الحبيب كارل - فهو شاب غاية
فى الظرف والأدب وحسن المعاشرة - وأما ما تذكريه من
واجب ، فأرى ألا تفكرى فيه الآن ، وتنغصى عليك سعادة

حبك ، فاعبثى بقلبك ماشئت ، وانعمى بحبك ما أمكنك ذلك ..
وربما كانت هذه هى فرصة نعيمك فى الحياة فلا تترددى ... !!
اتهيئنا من الشاي واستمر حديثنا بعد ذلك برهة من الزمن
ثم نظرت مارى الى ساعتها فنهضت تستأذن فى الذهاب .
صحبها الى حيث موقف الترام ، ومكثت معها حتى ركبت
وقد شيعتها بنظرات ملؤها العطف عليها والاعجاب بها فهى
بحق تستحق كل ما يقدم اليها فى ذلك السبيل وهى عندى
مثل صالح لما يمكن ان تكون عليه الفتاة .

سرت نحو المنزل بخطوات متساقطة ، أفكر فيما حولى من
حوادث وتقلبات ، وما تحويه الحياة من لذة وألم - وكمن
نفس هادئة مطمئنة تسير فى الطريق الذى اختارته دون أن
تلوى على شيء ، ولا تريد شيئاً آخر غيره ، وهى تحسب
أن ما تقدمه من إخلاص ومجهود فى تنفيذ خطة السير فى
ذلك الطريق لا بد أن يوصلها إلى ما تبغيه ... ولكن هيهات
أن يجد الانسان أن السبيل إلى غايته هو ما اختطه ورسمه لنفسه
قبل البدء فى العمل على الوصول لتلك الغاية - فغالباً تهب
عليه عواصف الحياة المختلفة فى القوة والناحية ، والتى لا يمكن
التكهن بساعة هبوبها ، ولا بالناحية التى تهب منها ، ولا بمقدار قوتها ،
وما هى الصعاب والآثار التى ستخلفها هذه العواصف ، حتى

يمكنه أن يعد نفسه العدة لا تقامها إن استطاع ، وإلا فإنه يجتهد أن يزود نفسه باصلاح ما دمرت ، وتعمير ما خربت وتقويم ما اعوج بتأثيرها - والذي دعاني إلى هذه الناحية من التفكير هو ما تركه في نفسي حديث ماري .

فإن أنا قارنت حالتي وحالتي كليل وماري في هذا الوقت من السنة بمثله في العام الماضي - بدا لي أن عاصفة قوية قد هبت علينا فاقلقت راحتنا ، ووضعت عراقيل لم تكن في الحسبان في طريقنا ، فإن نحن لم نهتد إلى التغلب على ما أمامنا من صعاب وإزالة كل أثر خلفته هذه العواصف من نفوسنا ، فإن النتيجة التي سيؤول إليها أمرنا هي أن يتحول كل منا عن خطته المرسومة ويضل السبيل إلى بغيته المنشودة .

كنا في العام الماضي يرفرف علينا طائر الهدوء والسكينة - وبدأت في أثنائه الحياة حلوة هادئة ، وظهرت بوادر مشجعة على تحقيق الأمل والوصول إلى الغاية ، وسلطنا طريقاً حسبنا أننا نعرف ما فيه من صعاب ، فلم نأل جهداً في اعداد أنفسنا لاجتيازها فائزين . وأكب كل منا على عمله يدرس ويحصل ويبحث ويدقق لاهم لنا غير هذا ، ولقد ظننا أن الدرس والبحث وما يتطلبه من صبر وجلد هو أهم العوائق التي حسبناها تعترض طريقنا إلى النصر والنجاح الباهر .

مضى العام الماضى وتقدمت زميلاتى الى الامتحان فكان
التفوق والنجاح الباهر نصيبهما وأما حظى من ذلك النصر
فلم يكن بأقل منهما فقد غمرنى أساتذتى بفضلهم وحسن رعايتهم
وثنائهم مع الاعجاب بما قدمته من نتيجة بحثى فى موضوع
عهد الى بدراسته ، ومن أجله دبرت حملة فى مجلس
الجامعة الأعلى بطلب اعتماد جديد حتى أتمكن من نشره
فى رسالة صغيرة - وقد كان ذلك . وتم لى نشره على من
يهمه قراءته - وفى هذه المذكرات يجب ان أسجل مبلغ ما شعرت
به من بهجة وسرور فكان فى تداول هذه الرسالة نشوة من
السعادة يشعر بها الانسان عند تحقيق أول أمل له فى حياته
العلية . وعندى أن تلك أول خطوة خطواتها فى سبيل
اثبات وجودى العلمى وفى الوقت نفسه شعرت باغتياب
عظيم لسنوح الفرصة التى هيات لى التمكن من المساهمة -
مهما ضوأت قيمة سهمى - فى إمداد الروح الجامعية بالحياة ،
فان حياتها كما أفهمها تتوقف على البحث والتدقيق والتنقيب
فى مختلف العلوم ، لأعلى الحفظ والترتيل ، واجابة أسئلة
الامتحان ، والفوز بالشهادات .

وعلى هذا مضى العام الدراسى الماضى وكان كله خيراً
وبركة ، واستقبلنا عامنا الدراسى الجديد وحسبنا ان امورنا

ستظل تجرى على ما كانت عليه ، ولكن يد القدر لم تغفل
عن سعادتنا وهدوئنا بل امتدت اليها - فسرعان ما انقلب الهدوء
قلقاً ، والراحة تعباً ، والسعادة المأماً .

وهذه ماري التي تركتها منذ مدة وجيزة قد وهبت نفسها
في سعادة وخشوع وهداة بال الى واجبها الذي من اجله
حضرت الى هذه البلاد ، حتى اذا ما عادت الى حيث أبواها
وأخواتها وأخوتها وفث لهم ولنفسها بما وعت - وقد كانت
صادقة في عزمها فوجهت جهودها في ذلك السبيل ، ولكن
لم يستمر حالها على ما ارادت وعلى ما اختطته لنفسها ، فحصل
ذلك الحدث الذي لم يكن في الحسبان ووقعت فريسة الحب ،
ذلك الجبار الطاهر الذي يسيطر على كل ارادة ويقهر كل
قوة مهما اعزت بنفسها في ميدان الحياة . ولذلك فاني ارثي
لحالها واسأل الله ان يلهمها طريق الصواب .

وأما كليل فقد أولعت بالطيران الى حد الجنون ، حتى
ملك عليها طرق تفكيرها وتصريف أوقات فراغها - وان
هي حادثتك فجل حديثها عن الطيران - وكيف انه مجال جديد
للمرأة تتمكن فيه من أن تثبت كفاءتها على قدم وساق أمام الرجل
المعتز بنفسه ، والذي طالما نظر اليها نظرة القوي للضعيف ،
والسيد للعبد - وحجتها في ذلك أن جميع الأعمال التي تحتاج

إلى شجاعة نفسية . وقوة عصبية ، أثبت الرجل فيها سيادته ، فقد مارسها الرجال زمناً طويلاً دون أن يسمحوا للمرأة بالاشتراك فيها ، فأصبحت كفاءة الرجال في هذه الأعمال وراثية نمت على مضي الأجيال وكر الأعوام - ولكن الطيران الصحيح فن حديث العهد . ولهذا يجب أن تنشط المرأة وتقدم عليه دون تريث أو إبطاء إن أرادت لنفسها العزة ، ولجنسها الكرامة ، حتى تكسب في ذلك المجال كفاءة على الأقل تساوى كفاءة الرجل . فان قدر لها النصر في ذلك المضمار فسيترك جيل النساء الحالي أثراً صالحاً ، وثمره طيبة لأجيالهن القادمة ، فينسجن على منوالهن ويتعهدن هذه الثروة بالرعاية والانماء .

واما حالى فى هذا العام الدراسى فلم يكن بأحسن مما آلت اليه حالتى مارى وكاير ، فقد ساورنى قلق الضمير واضطراب الفكر .

فى العام الماضى كنت أمضى منعزلاً فى حجرتى بالجامعة ساعات النهار الطويلة وفى كثير من الأحيان شطرا كبيراً من ساعات الليل مكباً على البحث والدرس ، لا أفكر فى شيء سوى العمل ومصلحته وحب الوصول الى جلاء ما غمض منه ، وان انا جلست الى نفسى بين فترات العمل سبى فكرى فى عالم الآمال وكان معظمه يدور حول سعادة مصر ورفاهيتها

وكيف السبيل للوصول بها الى مصاف الأمم
الحية... كنت دائماً أعتقد ان فى عنق رسالة وهى امانة
يجب ان أؤديها مهما لاقيت فى ذلك من صعاب ومهما قابلنى
الناس من سخريه واستهتار.

نعم اعرف انى شخص صغير ضعيف لا حول لى ولا قوة
ولكنى ايضا كنت اعرف - ولا زلت - انى ما دمت أعتبر
نفسى مصرياً فيجب ان اجاهد بما اعتقد انه خير لمصر
وساكنيها... على هذا المنوال كنت اشيد الآمال وكيف
تكون طرق الوصول اليها لأن من طبيعى عدم الميل كثيراً إلى
خيال الشعراء الذى يصعب جداً أن يكون حقيقة ، ولكنى
دائماً أؤثر الأمل الممكن تحقيقه وربما كان ذلك نتيجة تفرغى
للعلم العملى ، والبحث فى غامض المواضيع عن طريق التجربة
لا عن طريق التخمين والفروض ، ولا يخفى اننا نعيش
فى عصر التجارب العلمية العملية التى تحدث نتائجها كل يوم
تطوراً جديداً فى حياة البشر ، وأصبح العصر عصر الآلات
والصناعات وما يدخل عايتها من تحسين نتيجة البحث والتجربة
لتكون أكثر ملاءمة وأقل نفقة . والدافع لذلك هى المنافسة
التجارية وحب القوة وتنمية الموارد والثروة .

اما اليوم فقد أخذت كاتلين معظم أوقات فراغى ، بين

تفكير فيها فى غيبتها وبين الجلوس اليها وهى بجانبى ،
أو استصحابها إلى مكان نلوه فيه كالسينما أو المسرح أو ماشا كل
ذلك - طرأ على آمالى كثير من التغير . فتحول معظمها نحو
كاتلين ، وأصبحت هى كل سعادة لى فى الحياة فصرت أعلل
نفسى بالسعادة والهناء عندما تشملى كاتلين بكل عطفها
واخلاص قلبها وتكون ملكا لى دون غيرى - كنت أخوف
ما أكون على هذا الأمل لأن فى تحقيقه سعادتى الأبدية ،
وفى اخفاقه وفشله شقائى وعذاب نفسى ، ولهذا كنت دائماً
أفكر فيه - وكيف يمكن أن تقنع فتاة غضة حسناء بمثلى
وليس لى شىء مما يستلفت أنظار الحسان أو يكسب قلوبهن
وعطفهن ... ؟؟

ولعل ذلك يفصح عن سبب قلقي واضطراب فكري ... !!

آمال المستقبل

مرت الأيام وكل شىء فى طريقة العادى ، ولم يحدث
لى ما يستحق ذكره ، غير انى من حين لآخر أتسلم خطابات
من بعض أصدقائى بمصر . وفى بعضها وصف إجمالى لما
وصلت اليها حياة مصر السياسية والاقتصادية ... وكثيراً
ما رثيت لحالها ، ودعوت لها بالتحسن . وفى يوم من

الأيام كنت أطوف ببناء كلية الآداب بالجامعة اذ وقع نظري بطريق المصادفة على عنوان كبير ذكر فيه اسم الجامعة المصرية . فاقتربت منه وقرأته - فاذا هو اعلان عن محاضرة عن الجامعة المصرية لأحد الأساتذة الذين مارسوا التدريس فيها مدة من الزمن .

كانت المحاضرة على وشك أن تبدأ فبدافع حبي للجامعة ... وماذا سيقال عنها كنت فى لحظة بين المستمعين .

بدأ المحاضر بدياجة قصيرة عن تاريخ تكوين الحياة الجامعية بمصر وذكر عدد كليات الجامعة الجديدة وعدد طلبتها عام ١٩٣٠ ثم استطرد فى الحديث عن نظام التدريس فى مختلف الكليات ، ثم تركز موضوع المحاضرة على كليتي الآداب والعلوم وهما الكليتان الحديثتا العهد بها . ولقد أثنى بعض الثناء على النظام المتبع فى كلية العلوم لأنه مأخوذ من نظامهم ، والمهيمنون على أمره منهم . فهو يستمد قوته من روحهم ، ويسير فى الطريق الذى يرسمه أساتذة الكلية والانجليز هم أغليتهم وعلى رأسهم عميدها .

وأما كلية الآداب فوجه الى نظامها نقداً شديداً . فذكر أنها ثقافة فرنسية - والنظام الفرنسي مع كونه أصبح لا يصلح لروح العصر العملية والتمشى فى طريق التقدم والارتقاء .

فلا يستوعبه الطلبة المصريون ولا يمكن أن يستفيد منه غير الفرنسيين . فوضعه وفق مزاجهم وميولهم وعلى هذا يمكنهم وحدهم دون غيرهم أن يحصلوا منه على الفائدة المرجوة - ثم أكد أن الطريقة التي تتبع في كلية الآداب هي طريقة الحفظ والتلقين ... وليست طريقة تنوير السبيل والدفع الى البحث والتحقيق . فذلك هي الروح الجامعية الحقة ، وذلك حالها في الجامعات البريطانية - ثم أبدى دهشته للحاضرين متسائلاً ، كيف يصلح أن تكون حياة الجامعة الوحيدة بمصر مزيجاً وترقيعاً من الثقافات الغريبة المتعددة ، وتكون نتيجة ذلك أن تصطبغ كلية الآداب بالصبغة الفرنسية ، وكلية العلوم بالصبغة الانجليزية - وأسهب في الكلام عن أيهما أصلح لبناء حياة جامعية حقة بمصر ...

أما ما قاله في وصف الطلبة ، وما هم عليه من استعداد للتشبع بالروح الجامعية وتوطيدها ، فكان صدمة عنيفة لسمعة كل من الطلبة المصريين : فلقد وجه الى الطلبة دون هوادة أو إنصاف نقداً مرّاً ، مقنعاً ، مؤكداً للحاضرين عدم معرفة الطالب المصري وهو في السن الجامعي لأبسط مبادئ الاعتماد على النفس ، وحب التجربة والمخاطرة ، ومواجهة المسؤولية ، فنعنهم بالجبن ، وفي بعض الأحيان بالكذب

والغش ، حتى تغالى فذكر أن بعض الطلاب يسهل عليه أن يغش نفسه ويخدعها - وليست هذه الظاهرة بين الطلاب وحدهم ، فتجدها في الأعمال الخارجية ويظهر أثرها الجلي خصوصاً في الإدارة الحكومية ، فتجد أن كل موظف مهما كان كبيراً يعمل جهده على التخلص من مسؤولية عمله والهروب من الوقوف بجانب نتائج عمله . وليس أدل على ذلك من أثر أكثر مما يشاهد في أعمال الحكومة المصرية من البطء والتسويق والجمود الفظيع تحت اللوائح والقوانين دون أن يجرؤ أحدهم على الإقدام والتجربة لئلا يوقعه ذلك في مسؤولية - ولذلك فهم قوم لا يصلحون إلا للأعمال المتشابهة المتباعدة الآلية (Routine) وليس لأعمال التجربة والتجديد والمخاطرة مع التفكير . أما حبهم للبحث والاستقصاء والتنقيب ، فذلك يكاد يكون معدوماً بينهم . وفكرة الجامعة عندهم اليوم كما كانت فكرة التحاقهم بالمدارس العليا بالأمس ، والغرض منها التقدم للامتحان عند نهاية المدة والحصول على الشهادات لتكون أداة للتوظيف الحكومي - ثم لامهم لوماً شديداً على عدم معرفتهم قيمة الوقت والحياة . فذكر أن أوقات فراغهم تضيع سدى بين اللعب والمجون ، والخوض في السياسة ، لا حباً في مصلحة البلد وفي الطريقة الجديدة لخدمته ، ولكن

لأن مجال الكلام فى السياسة - وهم قوم كلاميون - أوسع منه فى أية ناحية أخرى من نواحي حياتهم . . . !!

لم ينته المحاضر من كلامه حتى علت وجهى حمرة الخجل واهلزت أعصابى غضباً لكرامة أخوانى الطلبة خاصة ، والمصريين عامة . ولو أن فيما ذكر الشئ الكثير من الحقيقة إلا أن هذه الحقيقة كانت مرة لاذعة على نفسى ، فلم أطق صبراً ، وضقت ذرعاً بالمكان وآثرت الانصراف قبل البدء فى مناقشة ومناقشات . . . !!

كانت الساعة السادسة مساء وقد حان وقت العشاء ، فذهبت الى المنزل لتناوله كالعادة ولكنى عبثاً حاولت أن آخذ منه نصيبى العادى ، وقد تركت فى نفسى تلك المحاضرة أثراً سيئاً وشعوراً بالتحسر على ما نحن عليه من التخبط فى جميع مرافقنا الحيوية .

تركت المائدة ثم جلست وحيداً أمام النار الموقدة فى حجرتى الخاصة بعد أن أوصدت بابها . وما هى إلا برهة خلوت فيها الى نفسى أنظر الى ألسنة النار وهى تشع على من حرارتها وقوتها حتى قادنى تفكيرى الى ان اطرح أمام نفسى السؤال الآتى :
هب ان الفرصة يوماً قد سنحت لى بتنظيم بعض شئون مصر الحيوية فماذا أنا فاعل . . . ؟ ؟

نهضت من مكاني في حركة سريعة ، ثم امتدت يدي الى قلم
وقرطاس علني أمتدي الى جواب على هذا السؤال فأدونه -
ثم جلست مستريحاً .

آثرت أن أبدأ بتحسين حالة الفلاح ، فهو نواة مجتمعا
وعلى مبلغ نشاطه في الحياة وحسن تصرفه في امورها تستمد
منه مصر قوتها المادية ، ولما كنت أجهل علوم الاقتصاد
والتدابير التي يشترط اتخاذها في مثل هذه الأحوال - لم أر
لذلك من علاج أحسن مما اختطه قادة الفكر في أوروبا
الوسطى والشرقية وكونوا من أجله نظاماً دولياً سمي « بالدولي
الأخضر » ليفرق بينه وبين « الدولي الأبيض » وهو نظام
الرأسمالية والدولي « الأحمر » وهو نظام الباشقية .

ويتلخص نظام الدولي « الأخضر » في أن توزع الأراضي
على أكبر عدد ممكن من السكان ، والحاجة في ذلك أن هؤلاء
السكان هم الذين يقومون بالعمل فيها . فهم المنتجون الحقيقيون ،
ويجب أن يكون لهم النصيب الأكبر فيما تخرجه هذه الأرض
من ثمرات . وبطريقة كهذه يمكن أن تتكون في مصر طبقة
قوية متوسطة ، يجرى في عروقها حب مصر والعمل على
رفعها . ولا يخفى أن الفلاح المصري يحب الأرض ويعشقها
فهو يعمل فيها ، ويسذل جهده بصرف النظر عن يملكها ولو

كان أجنبياً - فكيف اذا كان هو نفسه أو أحد أقربائه
بملكها؟ أنه لاشك عندى فى أنهم سيعيشون من أجلها
بأذلين جهدهم ، وهم مستبشرون فرحون ، وستكون أرض مصر بهم
سعيدة تدر عليهم من خيرها ، وفى الوقت نفسه يعترفون لها
بهذا الفضل - وسيشعرون أنهم يجازون بقدر ما يبذلون .

وطريقة الوصول الى هذه الغاية يجب أن تكون نتيجة
تفاهم بين جميع الطبقات فى سلام ووثام لآعن طريق الثورة
والإخلال بالنظام والأمن ، ويجب ألا يكون الوصول الى
هذا النظام طفرة بل بطريق النشوء والتطور والتغلب على
ما يعترض هذا النظام من صعاب - ومعنى هذا أن تقوم
بتنفيذه حكومة أو حكومات حازمة عادلة تأخذ على عاتقها
ابتكار الطريقة المثلى التى يمكن بها أن يتم هذا المشروع على
مدى سنين معينة دون أن تغبن أصحاب المزارع الكبرى وكبار
الملاك فى أطيانهم وأموالهم ، بل على الحكومة القائمة أن
تعوضهم عما تأخذه منهم ، إما بضمانة ملاكها الصغار فى تسديد
أثمانها على مدد طويلة ، أو بعقد قروض داخلية تكون نواة
لمشروع كهذا - وفى الوقت نفسه تعمل الحكومة على تشجيع
صغار الملاك عن طريق إعفائهم من الضرائب ، أو بتخفيفها
عنهم ما استطاعت ، وفرض ما خسرتة فى هذه الناحية على

أصحاب المزارع ومن يدهم الأموال - فتفرض عليهم ضريبة ميراث ... الى آخر ما تسلكه الأمم الغربية في هذا السبيل .
على هذا المنوال يمكن أن يزيد عدد ملاك الأرض في مصر وينشط كل مالك صغير الى السهر على مصلحة أرضه ليزيد من غلتها ووفرة محصولها - وتكون نتيجة ذلك أن تنقسم الدوائر الكبرى الى نعرفها اليوم إلى اقطاعيات صغيرة ، ويقل المثلثون الأغنياء بما يملكون من أرض بالمئات والآلاف والذين ستضطربهم ظروف الحال إلى استخدام أموالهم في الصناعة - ومنى توفر للصناعة رأس مال وعقول مدبرة مفكرة ، وتشجيع الأهلين ، فأننا بلا شك سنحيا آمالنا في إنعاش الصناعات المحلية التي يجب أن يكون معظمها قائماً على استهلاك المواد الأولية المستخرجة من مواردنا الطبيعية ، وأهمها الزراعة - كصناعات الغزل والنسيج ، والخضر والفاكهة ... والألبان ... وغيرها . ولا يخفى أن انتعاش الصناعة سيكون فتحاً جديداً مباركاً ، ومورد رزق لساكني المدن الذين يؤثرون الحياة بها على الحياة بالريف .
نظام أشبه بما ذكرت سيقرب بين طبقات الأمة ، وسيشعر كل فرد بأن عليه واجباً لوطنه ، وسيجعل الجميع يضحون في سبيل إسعاد الوطن وتقدمه .

مستقبل هذا النظام هو إحياء القرية المصرية ، ويقظتها
من ذلك الجمود الذى هى عليه منذ آلاف السنين - وسيتعلم
أهلها كيف يعيشون ، وسيعرفون معنى الحياة وسعادتها
فيحرصون عليها ، لأنهم الى الآن لا يعرفون لها طعماً سوى
أنهم موجودون .

وأما المدن فستسعد وتنعم بما فيها من صناعات ، ويسر
ورخاء ، وحركة تجارية مصرية لا أجنبية - سيشعر أهلها
وخصوصاً العامل منهم بأنه سترك منزله فى الصباح الى مصنع
مصرى تستهلك فيه مواد مصر الأولية . وبذلك سيرتبط الفلاح
بالعامل ، بصاحب المصنع ، بالتاجر ، بالمستهلك ، ويشعر كل
منهم أن عليه واجباً يؤديه نحو وطنه .

فإذا ما نشطت الحياة فى مصر على نحو ما ذكرت ، دبت
روح التقدم والارتقاء فى جميع مرافقها ، وتقاربت وجهات
مصر من كل الجهات من كل الطبقات ، وتطلبت حاجتها
الى نظام تعليمى جديد ، ووصلت الى أسعد حال من
الرقى واليسر .

وهنا أطرقت برأسى ثم نهضت فعددت عدواً سريعاً فى
الغرفة وصرت أتمنى فى نفسى : نظام تعليمى جديد
وما بال نظامنا اليوم ! فكرت ثم فكرت وأخيراً

قررت أن النظام التعليمي الحالي لا يصلح لمجتمع مصر الذي أريد بناءه ، وعلى إذن أن أضـع نظاما يروقي ولكنى لست من رجال التربية والتعليم فماذا أنا صانع ؟؟
جاءنى الجواب المقنع من دخیلة نفسى ، وهو ما دمت قد سمحت لأفكارى بالخوض فى معظم شئون نواحي الحياة المصرية ، من حيث تكوين المجتمع ، وعلاقة الطبقات بعضها ببعض ، ونظام الأسرة ، ومركز المرأة ، وعماد الثروة الأهلية وهو الفلاح ، وكثير مما يتعلق بظواهر الحياة - فلا بأس أن أقترح نظام تعلم يروقي ، وثقافة يكسبها النشء فتبني عليها ثقافة الأمة ، وثقافة الأمة هى فى الواقع حضارتها وتفكيرها ونظرها إلى كل شىء فى الحياة .

مدارس التعليم الأولية والالزامية والابتدائية على ما هى عليه الآن من نظام فاسد ، وحيـاة ملؤها الكذب والجبن ، والقسوة والخداع ، لا تروقي ولا أريدها أن تكون أساساً لنظام التعليم فى مجتمعى المستقبل - لى رغبة شديدة فى أغلاقها ولكن أنى يكون لى ذلك وسيحتاج على أكثر الآباء والأمهات الذين واللائى سيعتقدون أنى أخدعهم وأغدر بهم وأرجع بأطفالهم إلى الوراء إذا على أن افكر فى مخرج من هذا المأزق .

ربما يكون أحسن مخرج لي هو أن أنسج على منوال
قديم ، جرب فأفاد ، وهو نظام اسبرطا القديم .
الى حين سأترك تلك المدارس على اختلافها كما هي ،
وسأبدأ بأخذ الأطفال منها لأول مرحلة في خطى الجديدة -
أميزهم بعد الفحص والتدقيق الى طبقتين « الطبقة الصالحة » ،
و « غير الصالحة » ، وهذه الأخيرة تتكون من الأطفال الناقصى
التكوين ، أو المشوهين بعاثات مستديمة ، لا يجدى معها الطب ،
ولا ينفعها الدواء ، كطبقة المقعدين ، ومكفوفى البصر ، والذين
ورثوا ضعف الأجسام أو ضعف العقول ، والذين هم فى حالات
يستحيل معها العلاج - هذه الطبقة أن يجب تعزل فى
مستوصفات معدة لهذا الغرض ، كما يجب أن يلاحظ بكل
دقة انها لا تعقب خلفاً ، ولا تترك بعدها جيلاً يعانى آلام
الحياة . فلا يحزنون على غيرهم ما جناه عليهم آباؤهم .

أما الطبقة الصالحة فسأرجع فى تربيتها الى فلسفة الاغريق
القديمة وهى « العقل السليم فى الجسم السليم » ، ويجب أن
يكون للتربية غرضان . تربية الجسم ، وتربية الروح بغذائها
وتموينها بكل شئ جميل كالموسيقى ومختلف الفنون الجميلة .
سأخرجها الى حقول تعد لذلك ، وسأطلق عليها « حقول
التربية الجسمية » ، وفيها لا يسمح لهم إلا بارتداء الضروري

جداً من الثياب التي تكفي لحفظ أجسامهم من الطوارئ الجوية .
سيلقن الأطفال تحت خيام مضروبة في هذه الحقول
- لافرق بين اثني منهم أو ذكر - القراءة ، والكتابة ، والحساب ،
وأصول الدين الصحيح ، وبعضاً من القصص التي تبعث فيهم
روح الحمية والغيرة على مصرهم العزيزة - لن يكون هناك
عدا ذلك دروس خاصة ولا فروع من العلوم الأخرى -
وإنما سيكون هناك تقوية للمواهب الطبيعية - كل بحسب
ميله - فسيبذل القائمون على أمرهم جميع جهودهم في ممارسة
مبادئ أنواع العلوم والفنون وجميع سبل الحياة حتى يوقظوا
في نفس كل طفل استعدادها الخاص وقوتها الكامنة ومبلغ
ميلها . - بعد ذلك يأخذ القائمون على أمر هذه الحقول تنمية
الرغبات المختلفة كل بحسب ميله واستعداده .

سيذكر القائمون على هذه الحقول دائماً تلك الحكمة
المأثورة في كتاب السير ولهم سكوت « كنلورث » « لا تعط
طعاماً إلا لمن يرغب فيه » أو ما قاله أناطول فرانس « فن
التعليم فن ينحصر في أيقاظ الرغبة الطبيعية لفضول العقل
الصغير الناشئ ، وحبه للاستطلاع ، ثم العمل على تنمية هذه
الرغبة لدرجة يكون معها العقل قانعاً وسعيداً . . . الخ ،
ثم قال في موضع آخر ما ترجمته « التعليم الذي لا يكون

غرضه الأساسى تقوية العزيمة فى نفس الناشئ، وتنمية الرغبة فيها، هو تعليم يضعف العقل والتفكير. وعلى ذلك فأول واجبات المعلم أن يعلم تلميذه « كيف يرغب ويختار ثم يعزم ». ولن يقتصر الأمر على ايقاظ الشعور فيهم حتى يظهروا رغباتهم الكامنة، ومبلغ استعدادهم، ولكن سيبدل القائمون على أمرهم الجهد ليخلقوا فى الأطفال تشوقاً جديداً، ورغبات جديدة. فاذا تقدمت بهم الأيام على هذه الحقول وجاء طفل منهم يسأل مدرسه عن شىء، سيكون جواب الأخير فى كثير من الأحيان « انى لا أعرف - هناك آراء مختلفة فى الموضوع، واذا كانت هذه الآراء فى متناول الأطفال طلب منه قراءتها - والا قصها عليه - ثم بعد ذلك يقول له اختر لنفسك الرأى الذى تحب - أو كون لنفسك رأياً تعتقده صواباً وتقنع به فى هذه المسئلة. ربما يكون رأيك هو الصواب وليس كل من كتب فى هذا الموضوع قد أصاب ».

فهب أن أحد الأطفال طرح سؤالاً كالآتى « لماذا تكون السماء زرقاء صافية الأديم....؟؟ ».

انى انتظر من المدرس على هذه الحقول أن يكون جوابه « أكون سعيداً لو كنت أعرف السبب الحقيقى - ثم يسكت برهة - يستطرد بعدها الحديث ويقول « لأن

طبقات الهواء المشبعة بذرات الرماد الدقيقة ليست محدودة عملياً...؟ أو لأن الله قد خلق السماء كذلك...؟ ان كثيراً من الآراء قد كتبت لتفسر هذه الظاهرة تجدد بعضها في ... كذا... وكذا... من الكتب وربما أصاب أحد كتابها جادة الحق، فاذا ما قرأت وتمعنّت، وبحث ودققت، ربما نهتدى الى تفسير حقيقي لهذه الظاهرة وهي كون السماء زرقاء.. إذا ما تم لي تعميم إنشاء هذه الحقول في جميع بلاد القطر وأجبرت جميع الأطفال على دخولها بتشريع يفرض العقوبات القاسية على المخالفين، فسأصل عند هذا الحد إلى نتيجة مرضية في تكوين النشء، وإيقاظ الرغبة فيهم كل بحسب ميله، والعمل على تنمية هذه الرغبات، ثم تعلم الناشئة كيف يمعنون النظر في كل ما يخطر ببالهم، ويكشفون لأنفسهم عن السبب والمسببات وما يعتقدونه الحق لا ما قاله الناس أنه هو الحق لكل ما تقع عليه أنظارهم في وسطهم من ظواهر الحياة الطبيعية أو الإنسانية أو كل ما يراد منهم تصديقه والاعتقاد به - فلن يكون هناك :

« خذ هذا الشيء على علاته ولا تجادلني » ولن يكون هناك « هكذا وجدنا أجسادنا يقولون ويعملون ولقد ورثوه عن الأقدمين أو أو الخ

مانسمعه ونحفظه عن ظهر قلب دون أن يتيسر لنا فهم معناه
الحقيقى !!!

هذه الحقول سيلحق بها الأطفال فى سن السادسة
وسيتروكونها فى تمام الحادية عشرة - ونفوسهم مشبعة بكل
شئ جميل فى الحياة . ولقد أخذوا بنصيهم من التعليم المادى
الذى بمواصلته يستعدون للكفاح فى الحياة ، والتعليم الفنى
بتدريهم على التصوير والنحت والرسم والموسيقى وغيرها .
سيتركون هذه الحقول وهم لا يعرفون كيف يكون
الكذب ولا الجبن ولا إلى آخر أصناف الرذائل ،
فهم عن كل ذلك بعيدون نقيون .

من سن الحادية عشر إلى الثالثة عشر لافرق بين أناتهم
وذكورهم سيفرقون إلى فرق محدودة العدد . وعلى رأس
كل فرقة مدربوها الأمناء ، يخرجون بها إلى منعزلات
فى الهواء الطلق ، ومثلها سيكون مثل الوحدات العسكرية اليوم .
يحملون معهم كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وستكون
مأواهم الخيام المضروبة فلا يلجأون إليها إلا عند الليل - فى
هذه المدة سيتمرنون على حفر الأرض وزرعها وعلى حبها لأن
عليها تتوقف ثروة مصر وحياتها وعلى الصيد وركوب الخيل
والعوم وجميع أصناف الرياضة البدنية وسيدربون تدريجاً

عمليا على إقامة السدود والكبارى وتعبيد الطرق فذلك يربى أجسامهم ويبعث فيهم الصحة والقوة - بعد كل ساعتين من ساعات الأجهاد الجثمانى يسمح للتلاميذ بالاستراحة ، وفى أثنائها يقدم إليهم غذاء كاف لعقولهم ، وهو دراسة علوم الحياة (العلوم البيولوجيه) وتطبيقها على ماحولهم من الظواهر الطبيعية ؛ سيغرس فى نفوسهم حب الطبيعة وماخلعته على هذه الحياة الدنيا من آيات الجمال ، ومن غرائب ومدهشات ، وسيمثل لهم ذلك فيما حولهم من نبات وزهر ، وطيور ، ومختلف الحيوان .

سيشمر فى نفوسهم هذه الغرس وسيعشقون الخلاء كلها وجسدوا لذلك سبيلا ، يطلبون الراحة فى الفضاء ، وينعمون بالنبات والأزهار ، وسيجدون لذة مصحوبة بالرفقة والشفقة والعناية فى جميع أصناف الطيور والحيوان - فلن يكون هناك بعد ذلك تدمير ، أو خراب ، لبقعة طبيعية جميلة ، وإن يكون هناك عذاب أو قتل لحيوان لم يحسن فى الحياة ذنباً سوى أنه خلق ليسخره الانسان .

سيكون كل شيء جميلاً ، وستكون الحياة حلوة جميلة . وهنا سينتهى أجل التعليم الإلزامى .

بعد سن الثالثة عشر سيبدأ تعليم الأجرة لمن أراد ذلك وسيكون

نتيجته أن يتخلف جزء كبير من الشبان والفتيات الذين تستدعيهم حاجة أهلهم لمعوتهم وموازرتهم على أعباء الحياة ، فينكمش معظم الفتيات المتخلفات إلى منازلهن ليؤازرن أمهاتهن على القيام بأعباء المنزل ، ومساعدتهن على أداء ماحق عليهن من واجب في مجتمعنا الجديد .

أما الفتيان فيسكونون بجانب آبائهم في الصناعة والزراعة وأخص بالذكر الأخيرة منها . لأنها كما هي اليوم ستكون أهم مرافق حياتنا وثروتنا ، ولن تكون هناك غضاضة في الاحتراف بها لأن مستواها سيرتفع الى جميع الحرف الأخرى بل ربما أخذ شكلا أهم وأرقى لأهميتها في تكوين موارد الأمة ، وستكون جميع طرقها قد تغيرت عما هي عليه الآن . فستستخدم فيها جميع ماوصل اليه العلم من تجارب ، وما أخرجته لأجلها الصناعة من الآلات لتوفير جهود الانسان . واني أرى أن الآلات ستستخدم في جميع مرافقها . وفوق ذلك فان من أكبر العوامل التي ستجذب الى الشبان العمل في الأرض ، وبذل الجهود فيها ، هو أنهم سيكافئون بقدر ما يكدون ، وأن هذه الأراضي ملك لهم أو لأقاربهم ، فانهم ليسوا إذن مسخرين لغيرهم بأجر يومي زهيد كما هي الحال الآن .

أما ما بقي من الفتيات والشبان الذين يريدون استمرار

دراستهم والذين تسمح لهم ظروفهم بذلك مع استبقاء كل من أظهر نبوغاً طبعياً في فن من الفنون ، وكان من أبناء الطبقة التي لا تسمح مواردها باستمرار أولادهم وبناتهم في دراستهم ، وهؤلاء ستكفلهم الحكومة برعايتها . ثم يوجه الشبان والفتيات كل إلى المدارس الخاصة به ، وسيكون أساس التعليم في هذه المدارس تنمية المواهب والميول التي أظهرها التلاميذ أو التلميذات في أثناء دراستهم الإلزامية ، فتقسم العلوم والآداب والفنون والصناعات ، إلى وحدات متقاربة يندمج في سلك أحدها كل من له رغبة فيها ، ومن أظهر ميلاً خاصاً في أثناء تعلمه الإلزامي - وفوق ذلك فإن القائمين على أمر التلاميذ والتلميذات سيلاحظونهم كثيراً من المعلومات العامة ، وسينصحونهم بالقراءة كثيراً ، وسيظهرون عناية خاصة بتعليمهم وتعليمهن علوم الرياضيات واللغتين الأغريقية واللاتينية .

هذه المدارس ينتهي أمدها في سن الثامنة عشرة . وفي تمامها سيطلب جميع الفتيان إلى التجنيد الإجباري . فيتعلمون تعليماً عسكرياً حتى سن العشرين ، أما الفتيات فلا بأس من أن يمضين هذين العامين في دراسة العلوم الاجتماعية والتدبير المنزلي وواجبات المنزل والزوجية وتربية الأطفال ...

وغيرها . بعد سن العشرين تختلط الفتيات بالشبان في الدراسة الجامعية في مختلف فروعها على قدم المساواة في الحقوق والواجبات ، وسيكون أساس التعليم الجامعي «روح البحث والتنقيب ، وتشجيع المبتكرين والمخترعين والمجددين فيما اختاروه دراسة لهم ، سيسمو التعليم الجامعي على هذا الأساس عن مجرد الحفظ للتقدم للامتحان ونيل الشهادات ، وإنما يكون من أجل الفن أو العلم لذاته ، لأنها هي الرغبة الطبيعية التي دفعت بصاحبها أو صاحبتها إلى دراسة ذلك الفن أو العلم - وما دامت الرغبة ... فالنجاح والابتكار ينتظران صاحبهما ! ... !

عند هذا الحد لم أكن قد حددت مدة الدراسة الجامعية لمختلف الفنون والعلوم ، ولم أمهل حتى أضع الاستعدادات اللازمة لضمان منهج التعلم في المستقبل وكفايته لحاجة العصر ونجاحه ... حتى دخلت على سيدة المنزل !

قالت : حسبتك غارقاً في نومك منذ مدة طويلة - ورأيت ان أتركك دون إزعاج فقد تكون ممتعاً بحلم لذيذ ، فلم أشأ أن أقطعه عليك سريعاً .

قلت : أنه يا سيدتي ليس حلم نائم ، ولكنه حلم اليقظة وأملها ... كم الساعة الآن ؟ .

قالت : قاربت الثانية صباحاً . . . وإني أستحلفك بالله
أن تذهب إلى مضجعك لتستريح !

قلت : - وقد شعرت بألم في ظهري عند نهوضي - قاتل
الله الفكر فانه متى جال في الفضاء بنى آمالا لذيذة ، سرعان
ما يحسبها الانسان حقيقة تأخذ ببصره ، وتملك عليه عقله ،
فلا يلبث أن يشيد عليها . . . وهي لا أساس لها .

قالت . وقد وضعت يدها على كتفي الأيسر مشفقة
- حقق الله آمالك يا بني - ولكن يجب أن تعلم أنه ليس كل
أمل في الحياة تبغيه يمكنك تحقيقه . . . وليس يضيرك
أن تعمل والله المعين .

قلت : شكراً ياسيدتي . . فاني مؤمن بما تقولين . . ! !



Liverpool

ECHO

Last Edition

June 25th.

Liverpool Girl Student

Attempts a Record Solo Flight To Australia

نحن الآن وقد انتهى موسم الامتحانات
في ٢٥ يونيه وظهر كثير من النتائج

بعض النتائج النهائية ، التي كنت أترقب ظهورها -
ولكني لا زلت أواصل بحثي وعملي منفرداً في إحدى
غرف المعمل .

في مساء هذا اليوم تركت المعمل حوالي منتصف السابعة
وفي طريقى الى المنزل ابتعت جريدة « ليفربول ايكو » ،
المسائية التي اعتدت قراءتها خلال السنوات الثلاث
الماضية - وإذا في صفحتها الأولى عنوان ضخيم كما هو ظاهر
بعاليه وترجمته بالعربية :

« طالبة من ليفربول تحاول الطيران بمفردها إلى
أستراليا لتضرب الرقم القياسى » .

لفت نظرى هذا العنوان ، ومن تكون تلك الفتاة ياترى . . ؟ !
بدأت أقرأ ، وإذا اسم الفتاة كبير . . . القاطنة
بجي . . بمنزل . . . ويصفها المراسل للقراء بالجرأة والمهارة لما
سمعه من رجال المطار عنها ، وبقوة البيان وفصاحة الحجج وقد
تركت ذلك الأثر في نفسه عند مثوله أمامها لتفضى اليه بحديث .
المحرر - متى بدأت الطيران ؟ . . ؟

هى - فى صيف العام الماضى .

المحرر - ولكنك لم تمارسيه مدة طويلة فلقد علمت
أنك طالبة تستغرق دروسك وقتاً طويلاً . . .

هى كنت أقضى وقت الفراغ بالمطار فكما اعتدل الطقس
كنت فى الهواء .

المحرر - أظنين أن تلك المدة القصيرة التى أمضيها فى
تعليمك كافية لأن تجازى وتحاولى الطيران إلى استراليا ؟
هى - أتعشم ذلك .

المحرر - ولم تصممين على الذهاب وحيدة - وفى إمكانك
أن تستصحى أحداً من مارسوا الطيران إلى تلك البلاد النائية .. ؟
هى - ثقتى بالله وبنفسى .

المحرر - ما هى الدوافع التى من أجلها تقدمين على هذه
المجازفة الخطيرة .. ؟

هى - حبي الشديد للطيران ، ورغبتي فى أن تأخذ المرأة
بنصيبها فى هذا الميدان ، فهذه فرصتها إن أرادت منافسة
الرجل أو على الأقل مساواته فيما يقدم عليه من ضروب
الشجاعة والجرأة - وطالما فكرت فى المساهمة بنصيب فى
سبيل رفعة المرأة ووصولها إلى المستوى الذى يليق بها فى
عين الرجل ، وأخيراً يجب أن تذكر أن استراليا جزء من
أمبراطوريتنا العظيمة وكل محاولة مهما كلفت من روح ومال
فى سبيل تقريب المسافات بين أجزاء الأمبراطورية المترامية
الأطراف ، تكون نتيجتها توثيق العلاقات ، وتعلق أجزاء

الأمبراطورية بالأمم ، انجلترا ، وشعور الجميع بشعور واحد - ولا يخفى عليك - أن قدر الله لي النجاح - أتى ساستعمل طائرة بريطانية الصنع ، فاذا ما انتهت الرحلة ، أعلن النصر عن نفسه ، وأثبت للعالم أجمع قوة محركاتنا ومثانة صناعتنا - وفي هذا كثير من الفائدة للصناعة ، فانا نعيش في عصر الدعاية والاعلان - وما مثل مس إيمى جونسون بعيد - فاني أستمد جراتي وعزى من شجاعته وإقدامها ... !

هذا الحديث كان حقاً مفاجأة ، ولكنى لم أندش منه كثيراً لما عهدته في كثير من قوة الارادة والعزم والحزم - ولكنى عجبت لهذا التصرف السريع وخصوصاً أنها قد عودتني أن تخبرني بأشياء كثيرة مما يتعلق بحياتها الخصوصية ... فلماذا أمسكت عنى هذا الخبر ... ؟

تركنى هذا السؤال في حيرة ... ، وأخيراً فكرت في نفسى وقلت : قد تكون أشفقت علىّ حتى لا ينشغل بالى ، وأخاف عليها هذه المجازفة الجريئة ، فألح عليها في العدول ، . كنت قد وصلت إلى المنزل ، فأسرعت في استبدال ملابسى وتناول طعام العشاء على عجل ، لأنى على موعد مع كاتلين ... في تمام الساعة الثامنة - لأنى قد انتهت من تقديم رسالتى لدكتوراه العلوم ، وقد أثنى عليها

الأستاذ الذى اتدبه مجلس الجامعة من إحدى الجامعات
الأخرى لمناقشتى فيها وفحص دقائقها الثناء الجميل ، حتى دفعه
كرمه وعطفه فتطوع من تلقاء نفسه أن يكون واسطة
لنشرها لما تحويه من حقائق طريفة فى إحدى مجلات لندن
العلمية الكبرى .

وعلى هذا كنت مستريح الضمير فقد وفقنى الله إلى نتيجة
مرضية ثمرة لذلك الجهد المتواصل الذى بذلته عن طيب
خاطر فرحاً مستبشراً خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة -
والآن أخليت نفسى من كل عمل فى المساء ووقفت جل
ليلى على مقابلة كاتلين ، فى منزلها أو خارجها - فلقد
أصبحت هى سعادتى وهنائى وكل ما أريده فى هذه الحياة
- زاد ذلك من تعلق الأسرة بى ، تعلقاً كبيراً حتى غمرنى
عطف والدها وأشعرنى أنى ابن لهما ، فالمنزل يرحب بى فى
أى وقت أشاء .

بعد نزول الستار وانتهاء الفصل الأول من روايه تمثيلية
كنا نشهدا سوياً هذا المساء ، التفت إلى كاتلين وقلت :
« ان لدى خبراً عظيماً قد نسيت أن أقوله لك
هى - وما هو ، عله خير ؟ . . . »

هو . . . كلير . . . تعزم أن تطير وحيدة إلى . . . اسراليا

هى - أظنك هازلأ فيما تقول - حقأ أن كلىر تتعلم
الطيران ، وقد تحدثت بشأنة أمامى ... ولكنى لست أعرف
أنها تتسرع ويبلغ بها طيش الشباب إلى هذا الحد ...
أستراليا ... أستراليا . أتعرف كم من آلاف الأميال التى
يجب أن تقطعها .. حتى تصل الى ... أستراليا ... ؟
هذا صحيح ... !!

هى - انى لا أريد ان أصدقك هذه المرة ... فعذراً ... !
ألك فى ذلك رهان .. ؟
هى - لا بأس ، فسأنقذك شـلنـين ان صح ما تقول !
قبلت الرهان ..

رفع الستار عن الفصل الثانى ثم أعقبه الثالث وانتهت
الرواية وغادرنا المكان ... وفى الشارع ناديت بائع الجرائد
فاشتريت « الأيكو » لثنانى مرة ، وقد تركت النسخة الأولى
بالمزىل على مائدة الطعام .

أشرت بأصبعى إلى الاسم والعنوان ... فصاحت كاتلين ..
إذن صحيح - صحيح ما تقول .. يا لها من طائشة ... ولكن
أتمنى لها من قلبى كل نجاح ... !

قلت : بالله عليك أنقـدـينى .. فأعوض شراء الجريدة
أضعاف أضعاف الثمن .

قالت : وفتحت حقيبة صغيرة ومدت يدها - خذ ولا تراهني مرة أخرى .

سرنا سوياً في سكينه وهدوء حتى موقف الترام الذي أقلنا إلى المنزل وقد جلست بجانبها . بعد لحظة همست كاتلين قائلة :
ألم يصل إلى علمك هذا الخبر إلا عن صفحات الجرائد ؟
قلت : نعم

قالت : هذا غريب كنت أعتقد دائماً أن كليز لا تكتم عنك سرّاً

قلت : هذا هو اعتقادي . . ولكنني أعلل ذلك بأنها ربما آثرت أن تحتفظ به لنفسها وتخرجه للناس دفعة واحدة . . حتى تكون مفاجأة لي ولأصحابها .

قالت : اظنك ذاهباً غداً لتهنئتها !

قلت : مبكراً إن شاء الله . .

قالت : لا تنس أن تبلغها أطيب تمنياتي . . وسأنتهز الفرصة للذهاب إليها بنفسى لأودى هذا الواجب .
قلت : سأفعل .

حوالى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كنت يباب منزل كليز - فتحت الخادمة ، وقادتني إلى غرفة الاستقبال ، ثم أخبرتني أن الآنسة كليز - ترتدى ملابسها لأنها على موعد

قريب بالمطار - وستكون فى لحظة معى .
بعد دقيقتين دخلت كلىر وهى فرحة ضاحكة الثغر ممتلئة
قوة ونشاطا .

هى - هالو .. صباح الخير
أنا - صباح الخير جئت لـ
هى - على الفور : أعرف تماماً لماذا جئت ، دفعك
إخلاصك لى أن تحضر لى مبكراً لتعرف مبلغ مانشرته جريدة
« الايكو » من صحة .
أومات إليها بالموافقة .

قالت - نعم . هذا الخبر صحيح والحديث المنشور بينى وبين
المحرر قد حصل فعلا ولكنى أتوسل إليك أن تفهم
الحقيقة كما حصلت :

أعرف جيداً مبلغ إخلاصك لى وعطفك علىّ ، فأشفقت
عليك من أن أكشفك بالخبر من مدة لئلا تضطرب
نفسك من أجلى ، وتفكر فيما سيثول إليه حالى من جراء هذه
المحاولة ، هذا هو السبب الوحيد الذى منعنى من أن أطلعك
على كل شىء ، زد على ذلك أنى احتفظت به لنفسى دون
غيرى حتى أن والدتى لم تعلم به سوى أمس ، ولقد نذرت
فى نفسى أن أذيعه مفاجأة طريفة لأصدقائى وللناس أجمعين

يوم حصولي على شهادة بكالوريوس العلوم .

قلت في بهجة وسرور : إذن ظهرت نتيجة الامتحان ! . . . !
قالت : لم تعلق بعد على لوحات الجامعة الخارجية ولكن
أخبرني بها أحد الأساتذة أمس الأول ! . . !

قدمت يدي إليها مصافحاً ومهنشاً بالنجاح والفوز وتمنيت
لها النجاح في محاولتها الخطرة ولما أعهدده فيها من صدق
العزيمة فلن يثنى عنها عن عزمها شيء ، شجعته كثيراً وتحذرت
إليها من نقطة إلى نقطة في تفاصيل مشروعها الجديد حتى
أوصلتها إلى استراليا نحمل أكليل الفخار على رأسها . وكادت
تصدق أن أملها قد تحقق فعلاً ! . . . !

نظرت إلى ساعنها وقد قاربت الحادية عشرة فنهضت
تستأذن لأنها ذاهبة إلى المطار .

صحبتها إلى الخارج وفي أثناء السير طرحت عليها السؤال
الآتي :

نسيت أن أسألك متى يمكنك البدء في هذه الرحلة . . ؟
فأجابت : است أعرف بالضبط متى يكون ذلك ولكنني
أتعشم أن أجهز نفسي في مدى شهر من الآن .
قلت : إذن أنت الآن مجدة في تجهيز نفسك .
قالت : أشغل في ذلك ليل نهـار مع ما أجده أمامي

من صعوبات - وتعرف مبلغ حب والدتي لى وخصوصاً أنى ابنتها الوحيدة فى تعارضنى شديد المعارضة .

قلت : سهل الله أمامك كل صعب وأرجعك الى أمك غائمة سالمة ... ثم انصرفنا .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى البناء الرئيسى بالجامعة وأول مالفت نظرى جموع من الطلاب محتشدة ، فأيقنت أن النتائج النهائية قد ظهرت رسمياً ، وما أن اقربت منهم حتى أقبل على ثلاثة أعرفهم وقدموا الى تهانيهم بنجاحى - تقبلتها منهم شاكرآ وكنت كما ذكرت مطمئناً الى هذه النتيجة ألا أن ظهورها رسمياً يجعلها حقيقة ملبوسة - فحمدت الله وتقدمت نحو الكشوف لأرى ما كان من أمر بعض الاخوان .

كدت أطيّر فرحاً عندما رأيت مارى بين الناجحين والحائزين لدرجة الشرف وكانت هذه هى خاتمة النجاح الثلاثى كلير ، ومارى وأنا . وهى خاتمة كنت أتمناها من صميم قلبى .

أمضيت اليوم أشغل كالمعتاد لأنه لا يزال لدى من العمل ما يستغرق شهراً على الأقل . ولا يمكننى التفكير فى أجازة أو غيرها ألا اذا انتهيت ، لتشوقى الى نتيجة النهائية .

بعد العشاء ذهبت الى منزل كاتلين وقصصت عليها الخبر

وقد فرحت به كثيراً ثم استأذنت منها ومن والديها قاصداً
التوجه الى مارى .

فتحت لى الباب شابة متوسطة القامة فى مقتبل العمر ،
وفى ملابس الخدم . تراجعت إلى الوراء وأخذتني دهشة ،
ثم نظرت إلى رقم المنزل فوجدته صحيحاً .

ترددت ثم قلت ، أليس هذا منزل الدكتور « جونز » .

قالت الفتاة - نعم يا سيدى - أقول من ؟

أخرجت بطاقتي وناولتها إياها ثم حملتها لهم .

مرت فى نفسى خواطر سريعة ... ماذا حدث ياترى ... ؟

ليس عندهم من الخدم سوى مارى ... !!! أتركت

المنزل ... !! أم أصيبت بمرض ... !! أم ... أم ... إلخ !!!

ربما لا يكون شئ من هذا كله ، وسينجلي الخبر عن قريب .

بعد برهة عادت الخادم ، وطلبت الىّ فى أدب أن أدخل -

وما كدت أنتهى من خلع معطفى وتعليقه - مع القبعة بجوار

الباب « على الشماعة » المعدة لذلك ، حتى اقتربت منى مسرّ جونز

بشعر باسم - قادتني إلى غرفة الاستقبال وحيّتنى أحسن تحية

وما هى إلا لحظة حتى دخلت مارى فى ثوب قشيب جذاب ...

لم أره عليها من قبل ! ... !

قلت : مساء سعيد ، جئت لأهشاك بنجاحك الباهر مع

الإجازة بدرجة الشرف - وأتمنى لك في الحياة نجاحاً
مضطرباً ، ومستقبلاً سعيداً .

قالت : أشكرك - كما أتمنى لك من صميم قلبي مثل تمنياتك
الطيبة لي .

بدأنا الحديث عن الحياة الجامعية وما فيها من لذة ، وعن
الامتحانات وما فيها من خوف ورجاء ، وحمدنا الله على
انتهائها على هذا الحال ، ثم استطرطنا الكلام في مشروع كبير
وقد قرأت أخباره ماري فأثنت عليها الثناء الجميل ، ثم قالت
أنها كبيرة الأمل بل تكاد تكون متأكدة من نجاح كبير ،
وذكرت أن لديها قلباً كبيراً ، فبقيل من الحظ ربما تصل إلى بغيتها .
دخلت الخادم تحمل كؤوس البراندي ... وماري
جالسة لا تحرك ساكناً .. قدمتها ثم انتظرت حتى أخذتها ... !
طلبت ماري من الخادم استحضار الحلوى .. وكان
طلبها في صورة الأمر .

قلت في نفسي ما هذا التغيير ؟ وجلست أضرب أخماساً
في أسداس عليّ اجد حلاً .

ماري تلبس ثوباً فخماً ... تجلس مع سيدتها بالأمس
مسز چونس جلسة الند للند .. تطلب الشيء من المنزل في
صيغة الأمر ... ! ولكن لا سييل إلى السؤال فيجب أن أتريث ... !

استمر الحديث في شؤون كثيرة لا أذكر منها سوى حديثنا عن الجو والألعاب الرياضية ومباريات التنس ثم قطع الحديث دخول كارل ، وكأنه كان بالمنزل أو دخله من الباب الخلفى لأنى لم أسمع صوتاً لجرس الباب الخارجى أو صوت فتحه وحجرة الاستقبال ملاصقة للردهة التى يفتح عليه هذا الباب .

حيانى وأعقب تحيته بتهنئتى ، فرددت له التحية شاكرآ . ثم سألتى عما أنا فاعل الآن - بوقى - فقلت له أنى لا أزال أذهب الى العمل لأن لدى عملاً ربما يستغرق شهراً .

قال : وبعد ذلك .. ؟

قلت : لا أدرى ماذا أنا فاعل ، أعود الى بلادى . . . أم أبقى . . . كل ذلك رهن الظروف .

طال الحديث وأنا عنهم لاه بالتغيير الذى طرأ على مارى وأخيراً فكرت أنها ربما اعتزمت الرحيل بعد أن حققت ما جاءت من أجله . وإن ذلك سر تغيير حالتها فأصبحت ضيفاً عليهم أياماً معدودات . . . !

انتصفت الحادية عشر ويجب على أن أستاذن - ولكنى لن أستاذن حتى أكشف سر هذا التغيير . . . !

قلت : موجهأ الكلام الى مارى - نعم ان العام الدراسي

اتهى بسرعة . . . ألا تظنين ذلك . . . ؟

قالت : نعم - أوافقك .

قلت : وأظنك الآن تستعدين للرجوع الى المانيا وستمضى
الأيام سريعاً حتى تكونى بين أهلك وأقاربك . . . ؟

لم تنطق ببنت شفة وعلت وجهها حمرة الخجل . .
نظرت اليها مستغرباً . . فردت الى النظرة بزفرة عميقة -
انه لغز . . . !

نظر اليّ كارل وقال فى صوت بطيء :

« انها لن تعود الى المانيا . . . ! »

قلت : وكيف كان ذلك . . . فوضع يده اليمنى على يدها
اليسرى وكان يجلس بجانبها ثم رفع يدها اليسرى لكي أراها . . . !
قلت فى لهفة واستغراب : خاتم الخطوبة . . . أليس
كذلك . . . ؟

قالت مسرّحاً : نعم - حسبك رأيتّه منذ حضرت -
وانتظرت أن نهنئها . . . على ذلك .

قلت : عفواً يا سيدتى فانى قليل الملاحظة جداً . . .
ولكن من هو الزوج السعيد . . . نظرت الى مارى وقد اشتدت
حمرة الخجل على وجهها وانعقد لسانها وجلست دون حركة -
ثم حولت نظرى عنها الى مسرّحاً فاونس فاومأت بحركة

من رأسها نحو كارل .

قلت - إذا أنت السعيد يا كارل - تهنتى القلبية وأتمنى
لكما حياة ملؤها الحب والسعادة .

قال : شكراً . فأنت صديق وفى .

قدمت يدي إلى ماري لأصافحها مهتماً - فصاحتني دون
أن تتكلم .

استأذنت في الخروج ، فتطوع كارل أن يوصلني بسيارته
إلى المنزل . فقبلت شاكراً .

أثناء الطريق فهمت منه أنه لم يقدم خاتم الخطوبة إلا
صباح اليوم بعد أن سمعت ماري بنجاحها - وأخبرني أنها
كانت مترددة جداً في قبول الخاتم . ثم سأله متى يكون
الزفاف - قال بأسرع ما تسمح لنا الظروف بذلك ، لا سيما
وإن اجازته السنوية ستبدأ في أول أغسطس وهو يتمنى أن
يقضيها شهراً للعسل بجانب ماري .

وصلت إلى المنزل فالفراش ، وحاولت النوم فلم تجد
المحاولة - وصرت أفكر في تلك التطورات السريعة التي
مرت على صاحبتى خلال بضعة الأيام المنصرمة .

هذه كلير تنجح - ثم تعقد العزم على تحقيق رغبتها ،
وتحاول الطيران منفردة إلى استراليا .

وهذه ماري تنجح - ثم تقبل خاتم الخطوبة من كارل
توطئة لزفافها اليه - وبذلك ستعيش مع من تحب ، تسعد بجانبه
وترى في الحياة لذة ونعيماً بجواره .

وأما أنا فأفصح فقط !!!

ولم ألم أتوج نجاحي بنجاح آخر في الحياة إن استطعت ؟
إن قلبي معذب ، ولن يغنيه ألف نجاح ونجاح كالذي
أحرزته اليوم عن شيء . فهو إن كان نجاحاً . . فلا يخرج عن كونه
مادياً . . . وليس روحياً ، ذلك الذي يتطلبه القلب - إن
قلبي ينشد سعادته في حب كاتلين .

هي حسناء جميلة ، كثيراً ما عجبت لأمرها ، وأشفقت
عليها لأنني لا أرى في نفسي أي جمال . . . فقامت القصيرة لا
تشجع الحسان على النظر اليّ - ولكن بالرغم من ذلك كله
فهي تحبني . . . وتريني ذلك في كل لحظة وكل وقت . . . وتتمنى
أن تكون بجانبني . . . !

هي العناية الإلهية ارادت فدبرت - سلبتني الجمال - وخلقت
في نفسي حباً للجمال ، وعاطفة لتقديره في كل شيء يقع عليه
نظري - فلم تشأ أن أعيش معذباً لا لذنوب جنية - ، فعطفت
علي مثلي وأشفقت ، وعوضتني جمالاً في كاتلين التي وهبتني
حبها وقلها !

لَمْ كَلَمْ أَتَقَدَّمُ فَأَطْلُبُ يَدَهَا حَتَّى يَسْعِدَ بِهَا قَلْبِي فَمِى
فِرْصَةً نَادِرَةً فِى حَيَاتِى ! إِنِّى عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ أَضْحَى فِى سَبِيلِهَا
مَا اسْتَطَعْتُ عَنْ طِيبِ خَاطِرِ .

هَى عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ تُشَارِكَنِى الْحَيَاةَ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا . . .
لَقَدْ أَقْسَمْتُ عَلَى ذَلِكَ ! إِنِّى لَمْ أَعْشَ—مَهَا وَلَمْ أُغْرَرْ بِهَا يَوْمًا مَا
فَكَشَفْتُهَا عَلَى حَقِيقَةٍ أَمْرِي . فَمِى تَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ أُمُورِ
الْخَاصَّةِ - تَعْرِفُ عَيْشَةَ أَهْلِ الْقَرْوِيَةِ وَمَا يَأْكُلُونَ
وَمَا يَشْرَبُونَ - تَعْرِفُ أَنِّى لَسْتُ ابْنِ وَزِيرٍ أَوْ أَمِيرٍ - وَلَكِنْ
ابْنِ مِزَارِعٍ مُتَوَسِّطِ الْحَالِ وَخَرِيجِ الْإِزْهَرِ الشَّرِيفِ
تَعْرِفُ أَنَّ وَالِدَتِى لَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا الْعَامِيَّةَ ، وَلَيْسَتْ حَتَّى الْعَرَبِيَّةَ
أَوْ أَحَدَى اللُّغَاتِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ . تَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، بِنَا
يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ عَنْ الْحَيَاةِ الْقَرْوِيَةِ . وَلَكِنْ بِهَذَا كُلِّهِ هَى رَاضِيَةٌ
قَانِعَةٌ

إِذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَسْعِدَ وَأَنْعَمَ بِجَوَارِهَا وَأُكَفِّحَ الْعَيْشَ فِى
ظِلِّهَا ، وَسَأُنْخِثِ الْفِرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ فَأَفَاتِحُهَا . . . وَلَكِنْ قَانِلِ
اللَّهِ خَجَلِى وَجَبْنِى . . . مَهْمَا يَكُنُ الْأَمْرُ فَانِّى سَأَفَاتِحُهَا . . .
وَلَوْ عَنْ طَرِيقِ الْوَدَّهِ الَّتِى رَبَّمَا دَفَعْتَنِى الشَّجَاعَةُ لِلْكَلامِ مَعَهَا
فِى هَذَا الْمَوْضُوعِ .

الخاتمة

سارت الأمور في مجراها كما ذكرت . وكثير تستعد لرحلتها فهي تصل من أجل ذلك الليل بالنهار وتعمل جهدها ، فقد أعلنت أنها ستبدأ في اغسطس القادم . ومارى تلازم كارل فهما الآن يقومان بتجهيز منزل صغير استأجراه في إحدى ضواحي المدينة ، وهما الآن يكثران من الخروج إلى المدينة فيستعرضان مختلف المواد لحجر النجوم والاستقبال والمائدة ثم الملابس وغيرها وما إلى ذلك مما تحتاج إليه العروس عند زفافها .

وأما أنا فلقد بذلت جهدي حتى انتهى مما لدى من عمل بالجامعة فحرصت على كل دقيقة من وقتي ، كي أتمكن من أن أقوم ببعض مما يجب على نحو صديقتي مارى وكثير وأقف بجانبهما في ظروفهما المستقبلية ، لاسيما وأن مارى تحرص أكثر الحـرص على أن تكون كـلير الوصيفة الأولى التي تسير وراءها في حفلة الأكليل والزفاف . لقد فاتحت مارى «كـلير» بذلك وقبلت بشرط أن يتم هذا قبل تاريخ ١٠ اغسطس بأيام . فإذا لا بد لمارى أن تزف قبل هذا الموعد .

وفعلًا اتفقت هي وكارل على أن تكون حفلة الزفاف في أواخر شهر يولييه .

وأما كاتلين وأسرتها فلقد أظهروا الرغبة في أن يبدأوا أجازتهم السنوية ويتركوا المدينة إلى أحد المصايف على شاطئ البحر في أوائل أغسطس كعادتهم . ولكن رجوتهم أن يرجئوا ذلك حتى منتصف أغسطس لأنه كان من مرافقتهم بعد أن أكون قد انتهيت مما يجب على نحو ماري وكاير . ولقد قبلوا الرجاء ووعدوني بالانتظار . وكنت كلها اعترمت مكاشفة كاتلين أو أمها بما في دخيلة نفسي ملك على الخجل جميع حواسي فانهقد لسانى واضطرت إلى تحويل مجرى الحديث . على هذا كنت أعتقد أن ساحل البحر وماءه وأمواجه ، وشمسه وهواءه ، ستملؤنى ثقة بنفسى ، وعقدت العزم على أن أكشف كاتلين بأمري . وقالت فى نفسى أنه لا ضرر فى أن أتحمل هذا السكوت من الآن إلى أن تحين تلك الفرصة لاسيها وقد أصبحت غير بعيدة .

كانت الأفكار تتضارب فى ذهنى عندما أحدث نفسى عما سيؤول إليه حالى فى مستقبل الأيام إذا مرضيت « كاتلين » ، أن تشاطرنى الحياة . وكنت دائماً ، ولو عن طريق التحيز ، أرى السبيل لتذليل ما قد ينجم فى طريق سعادتنا من صعاب وما

يمكن أن تخلفه وجهات نظرينا المختلفة . فلقد ولدت كاتلين ، ونمت ، وتعلمت ، وعاشت ، في بيئة تختلف كل الاختلاف عن البيئة التي نشأت وعشت فيها . ولا بد أن يؤثر ذلك في وجهات نظرينا إلى ماحولنا من أمور . كل ذلك قد نظرت إليه بمنظار الأمل في السعادة ، والرغبة في الإشفاق على قلبي المعذب ، ورأيت أن أول واجب عليّ هو أن أحافظ بقدر ما أستطيع على الحب القلبي ، والعمل على إبعاد يد العيث عن الوصول إليه لكيلا يبرد ويفتر . لأنني أعتقد أنه مادام في القلوب حب فسيكون هناك دائماً حسن التفاهم ، ووسيلة للخروج من كل تنازع وشقاق . لذلك استرحت ، واستراح ضميري لما أنا عازم عليه ، وعولت على الاقدام دون نظر إلى أي اعتبار آخر مهما كان . فسمادتي أولاً ، وواجبي ، وأهلي ، وأقاربي ، وبلدي ، والناس أجمعون ، ثانياً - لأن الانسان وُلِدَ بطبيعته محباً لنفسه ، يؤثرها على غيرها في الحقوق والواجبات . حتى لو كان هذا الحب لشهوة في نفسه سريعة الزوال ، وربما أعقبت نتائجها الآلام والأحزان ، في حياته المستقبلية .

في صباح يوم ٢٦ يولييه وصلتني رقعة الدعوة لحضور زفاف ماري إلى كارل يوم ٣٠ منه الساعة الحادية عشر صباحاً بكنيسة ... بشارع ... فلأت قلبي بشرا وسرورا

لأنى اغتبطت كثيرا لما رى وفرحت لها ، ولقد من الله عليها
بالشاب الذى أحبه . ولدى صرحت عنه بأنها لا ترى
سعادة إلا بجانبه . ولا هذا من العيش إلا فى ظله - دعوت
لها بالسعادة والهناء

فكرت ماذا تكون هديتي التى سأقدم بها إلى ماري ؟
وأمر اختيار هدية - توافق الطرف ، وتناسب المقام - ليس أمراً
هيناً على نفسى ... ففيه كثير من التردد والخوف ...
ربما كان هذا لا يليق بالمقام ... ربما كان ذلك يدل على عدم
الذوق ... ! ربما كانت تلك لا تصلح لهذه المناسبة ... ! وهلم
جرا بما يتبع الاختيار ... ، خصوصاً على من كان مثلى
وما معى من نقود محدودة ، وتلك هى أول تجربة لى فى
هذا المضمار .

انتهى عملى بالجامعة يوم ٢٧ يولييه . ثم تفرغت يوم ٢٨
منه للبحث عن هدية مناسبة ، ولكنى لم أوفق ، فجددت
ذلك فى اليوم التالى . وأخيراً ابتعت لها الهدية وكنت بالمنزل
حوالى الثامنة مساء . ولم أكد أستريح فى حجرتى حتى دخلت
الخادم وقالت مسرراً كارل يريد أن يراك .

قلت فى لهفة وأين هو ؟ قالت بالبواب
عدوت عدواً سريعاً نحو الباب ، وما أن وقع نظرى

على كارل حتى بدا الى تمتع الوجه ، مضطرب الأعصاب ،
فأوجست خيفة .

دخل كارل وطلبت إليه الجلوس ففعل ثم ابتسمت
له وقلت :

خيراً إن شاء الله ، إنى أراك على غير عادتك . . ؟
قال - هي . . . هي . . . مارى . . . ؟ جئت لأسألك عنها ؟
قلت - فى دهشة واستغراب - أين هي ؟؟ انى اعتقد
أنها بجانبك تستعدان لحفلة الزفاف فى الغد . وكنت سا حضر
إليكما الآن .

قال - فى صوت متهدج - لا أدرى . . . حسبها حضرت
إليك لأنها كثيراً ما قالت عنك أنك من أعز أصدقائها .
قلت - لم أرها من خمسة أيام - ولكن متى تركت المنزل ،
أو لم تترك لك خبراً ؟

قال - لا . . . لا شىء سوى أنها أخذت أمتعتها الخاصة . .
ولم تترك سوى . . . خاتم الخطوبة .

قلت - هذا غريب . . . خاتم الخطوبة . . . أحدث
بينكما نزاع وشقاق أدى إلى . . .

قال - أو كد لك أنه لم يحدث بيننا سوى الحب والوفاء
ولذلك تجدى فى حيرة من أمرى . . . وماذا سيقول الناس

عنا غداً ؟

قلت - وقد حاولت أن أخفف عنه عبء هذه الصدمة العنيفة - خفف عن نفسك يا صديقي ربما دفعها طيش الشباب الى ان تحدث مفاجأة كهذه لتجعلنا جميعا في حيرة من أمرنا . فأنا أعرف أن مارى هى ملك لك دون سواك ، وهى من أسعد مخلوقات الله فى اليوم الذى تنعم فيه شرعا بهذه الملكية . أقول لك ذلك لأنها كثيرأ ما كشفت نفسها عن هذه الحقيقة ، وكنت أحفظها سرأ فى نفسى إلا أنى لا أرى ضرراً من اطلاعك عليها . وثق أننا سنجدتها فى هذه المدينة وستتم لكما السعادة فى الغد .

قال - أتعشم أن يكون ذلك .

فى لحظة كان على معطى لأن جو المساء قد تغير وصار أكثر بردأ مما كان عليه فى الصباح ، خصوصا وأن بالسما مطرا كثيرا ، ولقد تجمعت السحب وسرعان ما تمطر فى هذه الأيام .

صحبت كارل وتوجهنا إلى منازل كل من فكرنا فى احتمال ذهابها إليه .

استمر بحثنا حتى منتصف الثانية عشر ولم نعثر لها على أثر أو نستدل من أحد اصدقاءها وصديقاتها على طريق سلكته

أو فكرة اعتزمت تنفيذها .

لم أجد بداً من أن أرافق كارل إلى منزله ، وقد اشتد قلقي ، وساءت حالته النفسية ، وخصوصاً من أجل ما سيكون من أمره في غده ؟ أن الناس لن يعتقدوا أنه وماري جزء لا يتجزأ ، وأنه وهبها قلبه وحبّه كما فعلت هي ذلك بدورها . . . !!

إنهم لن يصدقوا أن ماري أخذته على غرة وأنه لا ذنب له ولا جريمة . . . !! لأن الناس لا يريدون دائماً أن ينظروا إلى حقيقة الأمور ، ولا يريدون التريث في مناقشة النتائج حتى تظهر أسبابها ، ولكنهم دائماً يتعجلون كل شيء ، ويفسرون كل ظاهرة حسب ما يتخيرون .

سيجتمعون غداً بالمنزل وبالكنييسة ليحضروا حفلة الزفاف ، وإشاهدوا ماذا تلبس العروس من جلباب ، وماذا تلبس وصيفاتها ولكن أين العروس ؟ أختفت . . . !! سيضحكون ماشاء لهم الضحك . . . ثم يرجعون إلى منازلهم ساخطين هازئين وسيتركونه موضع تخريبتهم ولومهم !

اللهم أنزل عليه من الحكمة ما يتدبر به أمره فهو مظلوم ولكن ليس في أعين الناس . وهو أعزل ؛

فهما دافع وقدم من حجج وبراهين فلن تجدى معهم نفعا .
وأخيراً ماذا يصيب حبه ، وقلبه ، وآماله ، وسعادته التي
بناها بجانب ماري . . . ! أن شيئاً آخر في الحياة لن يكون
عوضاً . . . !! فخارى كانت ولا تزال كل شيء يطلبه .

آثرت أن أمكث الليل معه أهدئه وأواسيه وأمنييه بظهور
ماري فجأة في الصباح الباكر ، وسيكون في ذلك سعادة له
وفرح ، وأن هذه السعادة وذلك الفرح سيتوجانه بعد بضع
ساعات بسعادتهما الأبدية . . . التي سيتمتعان على أن ينهلا
من منهلها سوياً بعد الحادية عشر صباحاً .

مرت ساعات الليل وكانت جد طويلة ، فكان كل ساعة
منها يوم على نفسى - وأصبح الصباح ، وقد فكرنا في ثلاثة
منازل أخرى لم نزرها فبادرنا بزيارتها ، فلم يجد ذلك نفعا .
انتظرنا إلى العاشرة صباحاً وحضرت الوصيفات وبينهن كبير ،
وكثر التخمين والتعليق ، وانتشرت الأقاويل ، ونهـامس
المدعوون وكثر الغمز .

وأخيراً استقر الرأي على أنه إذا لم تظهر ماري في تمام
الحادية عشر ، يعلن المدعوون بتأجيل حفلة الزفاف . . .
والكن إلى متى . . . !! يحسن أن يكون إلى أجل غير
مسمى !!

لم تظهر ماري ... وكان التأجيل ، وئمت عملية على ما فيها من مشقة للنفس ، وشعور بالهزيمة والتقهقر ، وليس كل تقهقر وألم للنفس مما يمكن احتماله .

سأمت حالة كارل النفسية بعد تلك الصدمة يوما بعد يوم وصار يستنشق الأخبار عليه يجد فيها ما يفسر له السبب ، ويكشف له عن حقيقة الأمر ، وكنت في أغلب الأوقات بجانبه ، ولكن عبثا حاولنا جلست إليه مرة .

قلت : ربما سافرت ماري إلى أهلها لتستشيرهم في الأمر ..
قال : يحتمل ، ولكن إن كان ذلك فلا بد أن تعود ..
قلت : أنك تجزم بعودتها ؟ ؟ .

قال : متأكد من ذلك فإنها لا يمكن أن تغالط قلبها وتشكر حبها . وقد وهبتهما .

قلت : أتعشم أن تكون هذه هي النتيجة .
مر يومان .. وثلاثة .. وأربعة وسبعة وكلما ذهبت إلى كارل أو حادثته تليفونيا عما إذا كان قد اهتدى إلى مكانها أو وصل إلى علمه شيء عنها . ؟

أجاب بالنفي وأعقب ذلك بزفرة عميقة ملؤها الحزن والأسى وربما قال في بعض الأحيان أن الصبر خير دواء لحالة كهذه ، أو دعنا ننتظر ونحن نرى .

فى يوم ٨ أغسطس شعرت بقرب اعتزام كلير القيام
برحلتها فصممت على أن أذهب إليها لأسألها عما وصلت إليه
من استعداد وعن موعد قيامها وهل لا تزال مصممة على بدء
رحلتها يوم ١٠ منه .

كنت بالبواب حوالى منتصف الرابعة مساءً ولو أنى كنت
أشعر أن هذا ليس وقت مناسب للزيارة إلا أنه استفسار
أكثر منه زيارة ، طرقت الباب فجاءت الخادم ورجتنى
أن أدخل ففعلت .

لاحظت على وجه كلير الشحوب ، وعلى عينيها التعب ،
وعلى وجهها الحزن والكآبة ، ولكنى آثرت السكوت الآن .
جلست صامتاً حتى فاتحتنى كلير فى الكلام وسألتنى عما
إذا كان هناك أخبار من مارى أو عنها . فأجبت بالنفى .
ثم قالت أن ذلك لغز لا تستطيع حله ، فوافقتها على ذلك
خصوصاً وأنتا أعلم الناس بحبها ووفائها لكارل . . . ثم تغدربه
فى آخر لحظة . . . ! ! سكتنا وتشاءبت كلير مرتين فى أقل
من ثلاث دقائق . . .

قلت : متى تنتظرين البدء فى رحلتك . . . ؟

قالت : لا أعرف . . . متى . . . ثم تشاءبت .

قلت : يظهر أنك تجهدين نفسك كثيراً فى الاستعداد

لهذه الرحلة ، ولكن ما بالك مكتئبة حزينة . . . ؟ ؟

قالت : أن لى ليلتين الآن لم يغمض لى فيهما جفن .

قلت : ولم ذلك ، أتشتغلين كل نهارك . . . وليلك ؟

قالت : أن أمى قد مرضت ليلة أمس الأول مرضاً فجائياً

فاضطرت الى أن أكون بجانبها واستدعيت الاطباء لها .

قلت : وأى نوع هذا المرض . . . ألم يشخص بعد . . .

وما أمل نجاحهم فى المداوة

قالت : لم يشخص بعد . . . أن الاطباء قالوا أنه لا يمكنهم

التأكد من تشخيصه الحقيقي إلا بعد ثلاثة أيام من ملاحظاتهم

سير المرض والتغيرات التى تطرأ باستعمال مختلف الدواء .

قلت : وأى ألم تشكو ؟ ؟

قالت : لا يمكنها تحريك نصفها الأسفل . . . ثم تنهدت

عميقاً . . . واستطردت فى الحديث . . . إنى أخاف أن يحول

ذلك دون رغبتي فى القيام برحلي - لأننى كما تعلم وحيدة أمى

وليس أحد فى هذا العالم احق منى بالجلوس بجانب سريرها

وملازمتها ، خصوصاً وأنى فقدت والدى منذ أمد بعيد

فكفلتني أمى برعايتها وعطفها . وكثيراً ماضحت فى سبيلى

بسعادتها وهنائها . فأنا مدينة بكل شيء أملكه فى هذه الحياة

إلى غرس يدها وكدمها وجدها . . . ثم أجهشت فى البكاء .

قلت : لا تبكى فسوف تشفى والدتك قريباً مما ألم بها .
قالت : كلنا معرضون للأخطار والأمراض . . . ولكنى
أتألم جداً كلما فكرت فى أنى ربما كنت سبب ما تعانيه والدتى
الآن من سقام وآلام . فهى كثيراً ما عارضت فى قيامى
برحلتى المزمعة لأنها تشفق علىّ ، وقد أوقفت حياتها علىّ ،
وكثيراً ما صرحت لى بأننى محط آمالها وسعادتها . وربما كانت
كثرة تفكيرها فيما سيؤول اليه حالى من جراء هذه المحاولة
قد جرت عليها ما تعانيه الآن ساحنى الله . . . فىالى من
فتاة طائشة . . . وكيف يمكن أن أكفر عن هذا الذنب . . . !!
قلت : أرجو ألا تذهبي بأفكارك بعيداً . . . وأتعشم أن
يكون ذلك مرضاً طارئاً سيزول قريباً باذن الله . ويجب
أن تبترسمي دائماً أمام والدتك ، عل ذلك يبعث فيها قوة
على مقاومة المرض ، وأملأ فى أن تواصل الحياة بجانبك ،
وأنت لا تزالين تبترسمين .

قالت : شكراً لك أيتها الصديقة - أتمنى لو الدتى الشفاء
العاجل فان قدر الله لها بشيء مكروه فسوف لا أتخلص من
عذاب نفسى ، ومن تأنيب ضميرى .

قلت : لاحظت أن جريدة الأيكو تكتب عنك تقريراً
فى كل مساء لتقدمك للقراء . فادارتها مهتمة بأمرك كثيراً ،

وفي عدد أمس تاريخ قيامك يوم ١٠ أغسطس ، أليس
من المستحب أن تطلي التأجيل أسبوعاً حتى نرى ما يكون
من أمرك ؟

قالت : لست في موقف أستطيع الآن معه أن أطلب
التأجيل أو أحدد مواعده للناس . . . ولكن أتعشم أن أصل
إلى رأي قاطع في هذا الموضوع بعد صدور قرار الأطباء
الذي أنتظره مساء الغد أو في صباح اليوم التالي .

قلت : أرجو أن يكون خيراً . . . ثم استأذنت في الخروج .
سرت بخطوات بطيئة متثاقلة وقد تأثرت نفسي لما ألم
بأم كليز وما يمكن أن ينشأ عن ذلك في حياة كليز ومستقبلها . .
وقد قاربت أن تخطو خطوة واسعة عن جدارة واستحقاق
نحو شهرة عالمية ، واشباع نفسها الوثابة الطموحة بما يمكن
أن تحزره من نصر إن قدر لها النجاح في محاولتها - ثم
اختلفت على تفكيرى وصرت أقلب حالى زميلتى ماري
وكليز - أما الأولى فهي لا تزال لغزاً لم أتوصل بعد الى حله .
وأما الثانية فلعلنى بتفصيل ما نزل بأمها من خطب ، لم أتمالك
نفسى من وضع مختلف الفروض . وما يمكن أن يؤول اليه
حالتها ان صح بعضها .

قبل أن أصل الى منزلى دعوت الله وتمنيت أن مانزل

بصديقتي - طارىء لا يلبث أن يزول ، وسحابة صيف لا تلبث أن تنجلي . ثم بعدها ترجع الأمور الى مجراها الطبيعي .
في صباح اليوم التالي اتصلت بكارل تليفونيا وسألته عما اذا كان قد وصل الى علمه شيء عن ماري - فأجاب بالنفي .
وبعد ظهر اليوم نفسه طلبت كلير بالتليفون واستفسرت منها عن صحة والدتها وعما اذا كان قرار الأطباء صدر أم لا - فأخبرتني أن صحة والدتها لاتزال على ما هي عليه وان قرار الأطباء لم يصدر بعد .

قابلت كاتلين في المساء ، وكنت مثقلا بالهموم من جراء ظروف ماري وكلير الغامضة ، ولكنني آثرت السكوت وحاولت أن أظهر أمامها بمظهرى العادى . ولقد خائنتى مرتين تصنعى هذا المظهر حتى لحظت على تغيرى ، فسألتنى ماسيه - قلت لاشيء . وصمتت فى نفسى على السكتان حتى ينجلي الموقف .
فى مساء ١٠ أغسطس اشتريت جريدة الايكو « Echo » كعادتى واذا بها عنوان ضخيم كما يأتى :

• Liverpool Girl Student Sacrifices Her Ready Chance To Fame for the Call of Duty. •

وترجمته : فى سبيل نداء الواجب تضحي فتاة طالبة من ليفربول بفرصة سانحة للشهرة ، عند - وقوع نظرى على هذا

العنوان - لم أشك في أنه بخصوص كبير ، فهي ورحلتها كانت قد أخذت مكاناً واضحاً في الاسبوعين الأخيرين على الصفحة الأولى لهذه الجريدة . بدأت أقرأ في لفظة ما كتبه المحرر .

واذا هو يقدم كبير للقراء بالفتاة الباسلة التي لا تعرف الخوف ، ولا تعرف بالخطر .

ولقد أظهرت في أثناء هذا الشهر الأخير دراية واسعة في فن الطيران ، حتى ان القائمين بتجهيز طائرتها الى رحلتها الخطيرة كانوا أكثر الناس تفاؤلاً بنجاحها ، والكل كانوا ولا يزالون يعترفون بان أعصاب هذه الفتاة من حديد وأن لا شيء يقف في سبيل نجاحها الا أسوأ الحظوظ - ثم يستطرد المحرر كلامه ويقول :

هذه الفتاة كما يعرف القراء جميعاً كانت قد اعترفت القيام برحلة منفردة الى اسنراليا وحددت موعداً لقيامها اليوم . وكانت فعلاً على أتم استعداد لذلك . إلا أنه حصل ما لم يكن في الحسبان . مرضت والدتها منذ ثلاثة أيام وقرر الأطباء اليوم أن ما ألم بها هو شلل لا حيلة للطب في مداواته .

لم يكذ يعلن الأطباء قرارهم لكبير حتى اتصلت بادرة هذه الجريدة تليفونياً وطلبت مراسلاً لتفضي اليه بحديث

في موضوع رحلتها .

أسرعت اليها فأطلعتني على الخبر بكل شجاعة وصبر وجلد -
وطلبت إلى أن أشكر بالنيابة عنها على صفحات هذه الجريدة
جميع من عطفوا عليها ، وتمنوا لها الفوز والنجاح . وانها ان
ضحت اليوم بفرصة نادرة الوجود ، سانحة الى طريق الشهرة
وعطف الجمهور ، واسترخصت التنازل عن رغبتها في تحقيق
مأرب طالما منت نفسها به وشيدت عليه آمالا جساماً ، الا
انها تدعن في هذه الساعة إلى صوت الواجب ، وتقوم بكل
ما يفرضه عليها وما يمكن أن يتطلبه ادائه ، مهماعز على
نفسها وغلا - فهي من أنصار اداء الواجب بقلب عامر
بالايمان لا يتطرق اليها اليأس ، مستبشرة بالمستقبل مهما
غمض ، باذلة في سبيله كل تضحية وراحة نفسية .

لم أكد أتهى من قراءة ما ذكره المراسل عن كدير حتى
شعرت بلوعة وحسرة ، وكيف أن أول أمل لهذه الفتاة
الممتلئة حماسة ، المتقدمة شجاعة وإقداماً يتحطم على صخرة لم
تكن في الحسبان - يعلم الله مبلغ تأثرى وما وصلت اليه حالى ،
ولكن لا راد لقضائه ، وليس لى من حول أو قوة أكثر من
اسأله الرأفة والرحمة بهذه الفتاة وبأما .

بعد يومين عدت الى منزلى كالمعتاد فى منتصف السابعة

لتناول طعام العشاء ، وبعد أن اسرحت قليلا في حجرتي
دخلت الخادم وسلمتني بطاقة - وإذا البطاقة تحمل اسم
كارل ... ويطلب منى فيها أن أذهب اليه ان أمكننى ذلك
حوالى الثامنة مساء - اسرعت فى تناول الطعام ، وكنت على
باب كارل ... فى الموعد المضروب ، يحسدونى الأمل بسماع
ما قد يدخل على نفسى بعض السرور من اخبار مارى ...
وعن سبب اختفائها ... ثم ابن هى الآن ... ومتى تعود إلى
حظيرة حبها ، وتتمتع بحياتها بالقرب من الشاب الذى وهبته قلبها ..
وجدت كارل ينتظرنى - فهو الذى فتح لى الباب وقادنى
إلى غرفة الاستقبال - وكان همى أول ما رأيته أن أحقق
النظر فيه على استمد من ملامحه ما يبدو عليها من أثر ،
دليلا على ما وصلت اليه حالته النفسية من سعادة أو شقاء .

لم يظهر كارل ... بمظهر الفرح الطروب ... حتى أوئل
خيراً ... ولكن ظهر بالمظهر الذى عهدت أن أراه عليه منذ
اختفت مارى ... ويمكن القول أنه فى هذه الليلة زاد حزناً
واكتئاباً . آثرت الصمت ، وقلت فى نفسى أن ذلك خير لى
حتى يبدأنى بما يريد الافضاء به الى .

فاتحنى الحديث فى موضوع كبير والغائما القيام برحلتها
وعما كتبه الصحف عنها . فأظهر عليها عظماً كبيراً ، وأثنى

على همتها وشجاعتها ووفائها ثناء عاطراً . . . ثم تمنى لو الدنيا
الشفاء العاجل حتى يتيسر الكير ، أن تنال بغيتها .

ثم سكت . . . فسكت معه . . . دخلت الخادم بأطباق
الحلوى فأخذت منها بمقدار ، ثم اختفت - وبعد برهة قال كارل :
ذهبت الى منزلك بعد ظهر اليوم . . ولكن للأسف لم أجذك !
قلت : خيراً إن شاء الله .

قال : قد وصلنى خطاب صباح اليوم . . . فأردت أن
أطلعك عليه .

قلت فى لهفة : أفیه شیء عن مارى . . . ؟

قال : بصوت منخفض - هو منها

قلت : هو منها . . . وأين هى . . . ولماذا لم تحضر . . .

ولم اختفت . . . ؟

قال : وقد مد يده اليمنى فى جيبه وأخرج الخطاب ثم
سلمني إياه - لا فائدة - وإني أتمنى لها السعادة فى مستقبل أيامها .
أمسكت الخطاب وأول ما وقع نظرى على طابع البريد
وعليه صورة الرئيس هندنبرج ومدينة التصدير هى كيل
فأيقنت أنها سافرت إلى ألمانيا

انزعجت الخطاب من غلافه بحركة سريعة ، وكان مكتوباً
بالانجليزية فبدأت أقرأ :

عزيزى كارل . . .

ان قلبى ينفطر ، وعيونى تدمع ، ونفسى تتالم ، وليس من
سبيل أن أطلعك على دخيلة نفسى وما أشعر به ، غير انى أسجل
على سطور هذا الخطاب أسفى الشديد لترى اياك ، ومغادرتى
ليفربول دون أن أطلعك على السبب ، وأقص عليك الخبر .
ربما تتعجب وتندهش . . . ويذهب بك هذا العجب والدهش
الى حـد الضحك والسخرية ثم تقول فى نفسك « يالها من
كاذبة خادعة .. كيف تحببى وتخلص لى وكم وددت الاقتراب منى
لتبث غـرامها ، وتكشف عن لوعة قلبها . . . حتى صدقتها
وكنت على وشك أن أهبط قلبى وأشاركها حياتى .. ثم هى
تختفى بدون سبب ، وتغادر بدون خبر » - لك يا عزيزى ان
تفكر وتقول عنى ما شئت .. فانى أعتفـر لك كل قول ،
وأتجاوز عن كل ظن . طالما استجمعت ما عندى من شجاعة وجرأة
لأقص عليك عـدم استطاعى . . . ولكنى لم افلح ، ولن افلح
مادمت أرى وجهك الجميل ، وعينيك الساحرتين - كثيراً ما
وددت مفاتحتك فى الموضوع ، ولكن كما وقع نظرى عليك
تغلبت عاطفة قلبى بما يحمله من حب اليك على ما سوى ذلك
من تأنيب الضمير والشعور بالواجب ، فأيقنت أن مواجهتك
أمر عسير على نفسى بل يكاد يكون مستحيلا .

عزيزى - أنت أعلم الناس بظروفي ، وكيف حضرت الى بلادكم ، وما هى الأسباب التى دفعتنى الى الاغتراب والوحدة ، والرضاء بأى عمل حتى الخدمة فى منزل مسز جونس . كما تعرف أيضاً ما آل اليه حال والدى من الضعف ، والتقدم فى السن ، وقلة المقدرة على مكافحة الحياة ، ثم تذكر ان لى اخوة لا يزالون بالمدارس فهم فى سن يحتاجون فيه الى الأخذ باليد والمساعدة والعون .

ليس أحق منى بالقيام بهذا الواجب ، ولقد وقفت نفسى عليه ووهبته إياها قبل مغادرة وطنى العزيز . ضحيت فى سبيل الاستعداد - لأتمكن من أدائه - براحتى فكم ، من نهار طويل اشتغلت وكم من ليل سهرت وكم ولكنى دائماً كنت مبهجة القلب ، مستريحة الضمير ، كلما رأيت نفسى انى اسير فى طريق التحقيق والوصول الى اى امر كبير لأداء ما فرض على من واجب

حضرت الى ليفربول وسارت حياتى فى مجرى عادى ، وآثرت الوحدة على الاختلاط ، وقنعت بذل الخدمة ومسئوليتها ، وكنت كلما شعرت بتعب أو غناء فكرت فى اللذة التى تنتظرنى والتي سأجنى ثمارها إن قدرت لى العودة للقيام بواجبى نحو أسرتى - وسرعان ما تستحيل الوحدة والغربة ، والتعب والغناء

الى راحة ضمير ، وعزاء روعي لذيد . تلك كانت حياتي ...
قبل أن أتشرف بمعرفتك .

تذكر أيضاً انى كثيراً ما تعمدت مغالطة نفسي فتجاهلت
حبك ، وغضضت النظر عما كانت تشع به عيناك من عطف
على وحب لى ... حتى ضاق صدرى ذرعاً بذلك التصنع
ولم أعد أستطيع اليه سييلاً ، فجئت اليك اكشفك بدخيلة
نفسى ، وعزمت على أن أنعم بقربك ولو الى حين ، ما دمت
قد غرقت فى حبك الى الأبد

عزيزى كارل : ثق تماماً انك أول من أحببت وأخلصت
له الحب والوفاء ، فقد وهبتك قلبي غير آسفة أو نادمة بما
فيه من شعور وإخلاص - ولو كان أمرى بيدي ولم يكن فى
الحياة من يتطلب منى واجباً لكنت على أهبة واستعداد ان
اهبك جسمى ، وان اقف بجانبك أكافح الحياة الى آخر رمق
فيها - وانا فى ذلك اسعد الناس واهنأهم عيشاً واخلاهم بالاً
تذكر أيضاً انى كثيراً ما ترددت فى قبول خاتم الخطوبة
ولكنك الحمت وكنت بجانبى ، فلم أر سيلاً الى الرفض
أو الامتناع .

يجب ان أصارحك الآن ان شعورى بالواجب لم يمح
يوماً من ذاكرتى ، فكان قوة كامنة فى نفسى تحارب شعور

قلبي بحبك والاخلص اليك ، واللذة الشخصية المنتظرة ،
وسعادة نفسى المستقبل من الاقتران بك - على ذلك كان
جسمى مسرحاً لنضال العاطفتين الحب والواجب ، وميداناً
للقتال ، وكان الحرب بينهما سجالات لا تخلف فى نفسى غير عذاب
الضمير ، والشعور بعدم الاستقرار .. أهما كتب الله له النصر ...
وأخيراً بعد أن أوشك الحب ان ينتصر وما هى
الا ساعات قلائل حتى يعلن الفوز بنعيم القلب ويندحر الشعور
بالواجب . . . غير ان الحال قد بدلت وانعكست آية النصر
بفضل تحكمهم العقل المجرد عن اللذة والشهوة . . . وانتصر
الواجب فأذعنت ، ونادانى فأجبت .

قررت العودة فجأة على مضض وأنا حزينة أسيفة وليكني
فكرت ان انا تركت لك فى حجرى خطاباً أنبأتك فيه بما
فعلت ، ربما لا تحمل أعصابك هذه الصدمة العنيفة ، خصوصاً
وان كل شىء قد تم ، ولم يبق سوى ان أصاحبك الى الكنيسة .
آثرت ان اتركك بين الرجاء واليأس ، للحدس والتخمين ،
حتى نهدي الأيام من ثورة نفسك ، وحتى لا يكون ما أفضيت
اليك به فى هذا الخطاب من أسباب يجديد على تفكيرك .

وأخيراً ثق . . . يا عزيزى كارل . . . انى لازلت احبك
للعبادة ، وانى أتوسل اليك وأتضرع جاثية أن تعفو عني وتصفح ،

لأنى مذنبه فى تحطيم حبك ، والعيش بقلبك ، وما اوجدتك فيه
من مركز حرج والشعور بالقلق والاضطراب .

أتوسل اليك وأستحلفك بكل عزيز لديك .. ألا تكرهنى
ولا ذنب لى ، فأنا كما ترى فريسة الظـرـوف ورهن
تصرف القدر !!

أختم خطابى بقبـلـات حارة أبعثها اليك من قلبي المعضب
وتمنيات طيبة فى حياتك المستقبلية وان تكون السعادة والرفاهية
حظك فى هذه الحياة .

المخلصة الى الأبد

مارى . . .

ملحوظة : أتعشم أن أحظى منك قريبا برد يطفىء غلتي ، ويخفف
من عذاب قلبي ، اقرأ فيه خبر صفحك عنى ، وعفوك
عن خطيئتي . . . والانتصار لفكرتى !!

كانت عملية قراءة هذا الخطاب شاقة على نفسى فملكت
على حواسى وشعرت بما تعانيه مارى من لوعة وحسرة وعذاب
يظهر ذلك جليا فى كل كلمة من كلماته .

سلمت الخطاب لكارل وأظهرت له أسفى الشديد على
ما أحاط بهما من ظروف قاسية .

ثم سألته : هل كتبت لها ردا ؟؟

قال : لا ... ولكنى سأفعل ذلك فى أول فرصة تسنح .
قلت : أتعشم أن تغفوا عنها فهى على ما يظهر فى عذاب
نفسى أليم .

قال . أنا أعلم الناس بذلك فأنى أعرف حقاً أنها تحببى
حبا يكاد يكون عبادة ... أنى أشاركمها فى كل ماذهبت
إليه ... وسأظل إلى الأبد أحبها وأحترمها وأقدسها ..
فهى بحق شخصية نادرة فى إنكار الذات والقيام بما
يفرضه الواجب .

عمدت إلى تغيير مجرى الحديث بالحديث عن الجو
والألعاب الرياضية ... وبعد قليل من الزمن استأذنت
فى الخروج .

تركت هذه الصدمة فى نفسى شعورا بالحزن العميق لما
آلت إليه حالة مارى .. وزادت هذا الحزن ظروف كثير ...
التي أقعدها عن الاقدام فكان فيها مثل التضحية
وإنكار الذات وتلبية نداء الواجب فلقد ضحيا بالأمل فى
السعادة والرجاء فى تحقيق الرغبة والشهرة لتلبية لنداء الواجب .
وصلت إلى المنزل مثقلا بالهموم وذهبت إلى الفراش ،
ولكن عبثا حاولت النوم ، وقد جال فكري وسبح ،
واستعرضت أمام نفسى حياتى ، وآمالى ، وما كنت أشعر به

في أيامي الماضية ، وما أشعر به الآن ، والذي أنا قادم عليه
أستمدوحيا من شجاعة صديقي النفسية ، وتضحيتهما ، والأغضاء
عن شهوة النفس وسعادة القلب ، بما هو أحق وأولى من راحة
الضمير والشعور بأداء الواجب .

تمثل أمامي حب كاتلين وتصميمي على مفاتيحتها في الاقتران
بي والرضاء بالعيش بجاني ، في الأيام المقبلة خصوصاً
وأنا اعتزمنا الرحيل إلى المصيف بعد يومين ثم بدت
لي نتائج هذا العمل وما يمكن أن يجلب على نفسي من سعادة
إلى قلبي الممذب في حبها من راحة واطمئنان . ولكن إن
أردت تحكيم عقلي ، كما فعلت صاحبتاي من قبل مجرداً عن
الشهوة واللذة النفسية . وجدت أن شعوري القديم بواجبي
نحو أهلي ووطني قد تغلب عليه ، وفي بعض الأحيان محاه
ذلك الطارئ الجديد على نفسي وقلبي ، وهو حب كاتلين .

لبثت أقلب صفحات الماضي وما كنت أشعر به كواجب
عليّ يجب أدائه مهما كلفني من تضحية وعناء . قبل أن
يعبث بقلبي حب كاتلين .

ثار لذلك عقلي وكأنه في ذلك لا يريد التقهقر بل أراد
الاتصافار على النفس وما تبتغيه ، وله في ذلك أسوة حسنة
بما حصل من زميلتي وصديقتي ، وأمطرني العقل بوابل من

الاسئلة ، ولكن هيهات فأنا أضعف منهما !! يذكرني
بالآمال وما كنت أشعر به في ماضي القريب . . . أين تلك
الآمال التي نشأت في نفسى منذ أول عهدي بالجامعة . . . ؟
كثيرا ما تمنيت أن يكون لى نصيب فى إصلاح مجتمع
مصر ، فأجهدت نفسى فى التفكير عن أسباب علته ومبلغ
إعوجاجه ، علنى بعد البحث والدرس أتمكن من أن اساهم
بنصيبى فى تقويم هذا الاعوجاج ، والتخلص من الداء العضال .
أين ذلك العهد الذى قطعته على نفسى فى الساعة التى
وطأت قدماى فيها « الباخرة الفرنسية » التى اقلتنى إلى
الديار الأوربية ، وهو أن اعمل لخير مصر وسعادتها ويجب
ان اذكر دائماً مصر فى كل خطوة اخطوها . كما يجب ان
لا يغيب عن ذهنى انى ما وصلت إلى هذه الديار الأوربية
لأرتشف من مناهل العلم وأتخلق بأحسن الأخلاق ، إلا بفضل
دافعى الضرائب من سكان مصر . . . ولا يخفى ان اساسها
عرق جبين الفلاح المسكين . . . إذا حق على ان اعمل
جهدى ، وأضحى براحتى وسعادتى محاولا فى ذلك ان ارد
بعضا مما يجب على نحو مصر واهلها . . . ولكن . . .
هل يغير هذا الموقف زواجى بكاتلين ، وهل تتحول حياتى
عن هذا المجرى الذى شقيقته لها والذى دفعنى إليه الشعور

بالواجب ... ؟ ؟ .

هنا تحكم العقل صراحة وفي غير تحيز وجاء الجواب العميق
من نفسى .

ربما يتغير الموقف كثيراً !! ولم ذلك ؟
لأن كاتلين انكليزية وحياتها جزء من الحياة الانكليزية ؛
فهي لا بد أن تشعر بشعور أهلها مهما بعدت الديار ، ومهما
حاولت الاندماج فى وسط أجنبي ... لا بد أن تحن إلى
معيشة أهلها ، وان تفكر بأفكارهم ، فهي جزء منهم وستظل
كذلك إلى الأبد . وأما انا فمصرى ، وحياتى جزء من الحياة
المصرية ، وعلى ارض مصر نشأت وتربيت ، فتأصلت عاداتها
وأخلاقها فى نفسى ، ومهما حاولت التصنع لاتخلص من
هذه العادات ، فلن يجدى ذلك نفعا وسأظل إلى الأبد مصرياً .

سأظل أذكر القرية وحياتها سكانها وما يعانونه من بؤس
وفاقة ، سأظل أذكر حياتى الأولى فى
المنزل والكتاب والمدارس المختلفة سأظل
أذكر رفاقى بالقرية والمدينة ومجتمعاتهم وطرق عيشهم
ولهوهم ! سأظل أذكر الشئ الكثير من ادوائنا
الاجتماعية !

وأخيراً سأظل أذكر مصر .. وأذكر معها احلامى

وآمالى . ثم العهد الذى قطعته على نفسى سيخفق لذلك
قلبي وتثور ثائرتى . . . وربما انهض للعمل . . . ولكن
كيف اصل وكاتلين بجاني . . . ؟

ان مصر فريسة الامتيازات والمصالح الاجنبية ، وكل
عمل ايجاني فى سبيل سعادة اهلها ، يجب ان يبدأ برفع هذا
الظلم عنها حتى يتمتع اهلها بجميع خيراتها ومواردها

هب أنى يوما ما ناديت بذلك . . . ! ستثور ثائرة الأجانب
بمصر . . . وسيغضبون وربما - بل الأرجح - أن تعطف
كاتلين عليهم . وتغضب لغضبهم - ولا لوم عليها فى ذلك -
لأنها منهم ولها أن تحس بشعورهم وتغار على مصالحهم .

الخطوة الثانية فى سبيل تحقيق آمال البلاد ستدفعنى الى مناوأة
النفوذ البريطانى فى مصر وسودانها ، حتى يسرد النيل من أعاليه
الى مصبه العزة والكرامة ، فتجرى مياهه فى واد حر طليق .
ويأخذ ما يجب أن يكون له من مكانة فى مصاف الدول
الأخرى - وبذلك يقف أهله وساكنوه مع غيرهم على قدم
المساواة فى الحقوق ، وبسط يد الصداقة لمن يرغب فيها ويحفظ
لهم عهدا

ولكن كاتلين انجليزية صميمة . تفخر بجنسيته . وتذكر
أهلها بالشجاعة والحزم ، وتفكر دائما فى رفاهيتهم ، وتدعو

الله أن يزيدهم قوة على قوتهم ، وأن يحفظ لهم امبراطوريتهم العظيمة - لاشك عندى أنها ستغضب إن أنا حاولت مناوأة نفوذهم . وليس لى أن ألومها فى ذلك الغضب ، لأن دمها يجرى بحب أهلها وبلادها ، فكثيراً ماشرت نخب الصحة والقوة والسعادة لامبراطوريتهم العظيمة .

فوق كل الاعتبارات التى ذكرت - أطرح على نفسى السؤال الآتى :

ما الذى سيكون من أمر أولادى - إن قدّر لى ذلك - حالة زواجى بكاتلين . . ؟؟ سيتربون أحسن تربية ، وسيشبهون على الفضيلة ، وسيقدرون الجمال فى كل شىء ، وسينظرون إلى كل شىء حولهم بعين الحب والعطف . وربما يحسدنى عليهم أصدقاؤى المتزوجون بمصريات . . . ولكن هناك شىء واحد سينقصهم ، وهو مصريتهم الصميمة ، وعدم تنميتهم عاطفة الحب لبلادهم ، والتفانى فيها وشعورهم بالفخر انهم مصريون - ولا لوم عليهم فى ذلك - لأن هذه عاطفة يعهد بتنميتها الى الأم وقت الطفولة والغرس . . . وأمهم كاتلين ستكون فى حيرة من أمرها . . . أى العاطفتين تغرس . . . حبها لبلادها . . . أم حب زوجها لبلاده . . . أم هناك سبيل للتوفيق . . . ؟؟ حسبت أن تعمق فى هذا التفكير سيجلب على نفسى

التعس والشقاء . . . ؟

الساعة الآن تدق الحادية صباحاً وأنا لا أزال أفكر
فأتردد - برهة أتصر لدليل العقل ، وأخرى لأمل السعادة
التي تنتظرني من حب كاتلين في المستقبل . قلبت الأمر على
وجوه كثيرة وقلت : هب أنى تركت كاتلين الحساء فكيف
أعوض قلبي بحب آخر ، وربما هى فرصتي الوحيدة فى الحياة ؟
يجب أن لا أنسى أنى أعزل من السلاح فى ميدان الحب
والغرام فلست أملك جمالا أو مالا بما يستهوى غاداتنا الحسان . !
ترددت ويعلم الله مبلغ ترددى .

دقت الثانية صباحاً . . . لازلت فى ترددى . . ثم الثالثة
وكانت هذه خاتمة التردد فنهضت من الفراش مسرعاً - جلست
الى مكتبى وأمسكت بالقلم فى عزم أكيد ثم كتبت خطاباً
الى جناب مدير البعثات بلندن أرجو السماح لى بسرعة
العودة الى مصر وقد انتهيت من دراستى التى أوفدت من أجلها .
بعد ظهر اليوم التالى فاتحت احداً اصدقائى بنية العودة
الى مصر فضحك وحسبني هازلاً ثم علق على الأمر .

« يا شيخ ياريتنى اقعد العمر كله هنا - حـد طایل - لك
سنتين فاضلين وعائلتك ليست فى حاجة ماسة اليك ومرشح
لجائزة أدبية من الجامعة » .

ولكنى أكدت له ذلك . . فأصر من جانبه على الضحك
الى درجة السخرية . . !!

بعد يومين وصلنى رد مدير البعثات يهنئنى بما وقعت
اليه من نجاح ، ثم لا يرى مانعاً من عودتى ولكنه يذكّرنى أن
مدة بعثتى لم تنته بعد ، وأن لى الحق فى ستين آخرين حسب
مالديه من برنامج . ويطلب ملاحظاتى على النقطة الأخيرة
كتبت اليه شاكرًا تهنئته فطالما عهدته أبا رءوفا غمرنى
واخوانى الطلاب بعطفه ورعايته وسديد نصحه . ثم ذكرت
له أنى ما وصلت الى هذه الدرجة الا بفضل مصر وأهلها
على ، وليس أحق بمجهودى الآن فى البحث والدرس من
المساهمة فى تنمية موارد مصر العلمية والاقتصادية وما يفرضه
على الواجب نحوها ، فلقد قطعت على نفسى عهداً ان أعيش
من أجل مصر .



» (تمت) «